القسم الثاني

انتصار جستنيان

الفصل الرابع

القسطنطينية

كان ميدان الأوجستيوم هو سرة القسطنطينية ، وهو ميدان رحيب مرصوف بالرخام ، لا بد أنه فى شكله العام كان يماثل ميدان القديس ماركو (Piazza San Marco) بالبندقية . وكانت تعلو فى جانبه الشمالى قبة كنيسة القديسة صوفيا ؛ وكانت تقوم فى شرقيه أطواق[1] دار السناتو المعمدة ، أما البناء المنخفض الذى يقع إلى الجنوب منه واشتهر بأبوابه الثقيلة المصنوعة من الحديد ، فيعتبر المدخل المؤدى إلى القصر الإمبراطورى ، ويقع وراءه الجدار السامق للمقصورة الإمبراطورية ، وهو بناء كانت طوابقه العليا التى تطل على ميدان السباق فى الجهة المقابلة ، تكوّن المقصورة الملكية للإمبراطور ، وتتصل مباشرة بمبانى القصر بأروقة وسلم حلزونى . وفى الميدان يقع ـ بالإضافة إلى الصوّة[2] ، وهى بناء معقود تبدأ منه جميع الطرق الإمبراطورية ، ـ عمود باسق من البرونز يحمل فوق هامته تمثالا شامخاً لجستنيان فى هيئة فارس فى عدته الحربية ، وقد أمسك بيده الكرة الأرضية ، وامتدت يده نحو الشرق ، كأنما يأمر البرابرة بآسيا بألا يتخطوا حدودهم . وكان « الميزى Mese » أو الشارع الرئيسى الذى تحف جانبيه السقائف والتماثيل والقصور الفاخرة

---

(١) ورد فى معجم الوسيط ما نصه الطاق ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية وجمعها أطواق وطبقان . (المترجم)

(٢) الصوة كما ورد فى المعجم الوسيط : ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق والجمع صوى وأصواء . (المترجم)

يمتد من ذلك الميدان نحو الغرب على امتداد شبه الجزيرة إلى الباب الذهبي ، وهو مدخل محصن وفق الطراز الرومانى يقوم فى الأسوار الضخمة التى تجتاز البرزخ .

ولو نظرنا من ناحية البوسفور إلى ذلك النطاق الضخم الممتد حول القصر، الذى يضم المنحدرات بين ميدان الأوجستيوم والشاطىء ، لوجد مرصعاً بمجموعات من القباب المذهبة والجواسق البيضاء والحمامات والشرفات والبيع (الكنائس) التى قامت بين الأشجار والنافورات وربط بينها مجاميع من درج الرخام .

وكان المدخل الرئيسى المؤدى إلى القصر يفضى من الأوجستيوم إلى قاعة عظيمة ذات قبة ، مزينة بالفسيفساءات التى توضح حروب جستنيان وانتصاراته فى المعارك . ومن خلف تلك القاعة تقع غرفة العرش ، وكانت بعض السلالم تؤدى من هذه الغرفة إلى قصر دافنى ، بغرفاته وشرفاته الطلقة الهواء التى تطل عبر المياه الزرقاء على قمم جبال بيثينيا التى تكسوها الثلوج .

على أن قصورا إمبراطورية أخرى ، قامت لا فى هذا الحى وحده بل فى خارج المدينة وعلى الشاطىء الأسيوى .

وكانت مجموعة المبانى المؤلفة من القصر والميدان والكاتدرائية وميدان السباق تعتبر نقطة البداية ، لما حفلت به حياة العاصمة من مواكب وأزمات . فإذا كان عيد رأس السنة ، وكان الإمبراطور تنازل فقبل منصب القنصلية ، ازدانت واجهات المنازل بالطنافس ، ورفرفت الرايات الحريرية على سارياتها ، وغص الميدان بالمنصات الخشبية ، وازدحم بجموع نقابات المدينة وأحزاب السيرك . وفى داخل القصر كان الإمبراطور يتلقى آيات الولاء من

مجلس السناتو . ويستمع إلى مدائح الخطباء ، وفى مقابل ذلك ينفحهم بسلال مملوءة بقطع الذهب وكئوس من الفضة أو يمنحهم لوحات العاج (Diptychs) التى تحمل رسمه . ثم تنفرج بوابات القصر عن المنادين الذين يتقدمون الموكب الطويل المؤلف من الموظفين ورجال البلاط والحرس يسيرون صفوفاً عبر الميدان إلى الكاتدرائية ، وهناك يقدم الإمبراطور ـ بين أنوار الشموع الكثيرة ـ هباته على الهيكل المرتفع ، ويتلقى البركات وذلك قبل أن يمضى ، بموكب النصر إلى الكابيتول . وهذا الاحتفال لم يكن إلا واحداً من احتفالات كثيرة مماثلة . غير أنها ما كانت تقصر على البلاط وحده ، مثلما كان يحدث فى مجلسه من الإنعام بالرتب أو الترقيات أو لاستقبال أمراء القوقاز أو الهيرول، أو تلقى المبعوثين والسفارات من فارس والحبشة . وعندئذ كانت المواسم البيزنطية تظهر فى أبهى صور فخامتها . وكانت الجماعات الصغيرة من الأجانب الذين كان يرشدهم موظفون دائمون معينون لذلك الغرض ، يسيرون وئيدا بين صفوف من الجند طوال القامة ، كأنها صفوف متراصة من التروس والخوذات المذهبة والريشات الأرجوانية والحراب اللألاءة ، حتى يبلغوا آخر الأمر الأبواب العاجية لغرفة الدخول . وتعقب ذلك فترة انتظار طويلة . وعلى حين بغتة ترفع الستور وتكشف للأعين منصة بالغة الروعة — يتجلى فيها الإمبراطور جالساً على عرشه بين النسرين يحيط به حراس فى ملابس بيضاء لها ياقات مذهبة ، وقد جلس حوله أعضاء السناتو وعلية الموظفين فى أرديتهم الحريرية . وبعد أن ينبطح السفراء على الأرض ثلاثاً ، يسمح لكبيرهم أن يقدم هداياه للإمبراطور قبل أن يأذن له بالانصراف فى كلمات كريمة . ويلقى السفراء طوال مدة مقامهم إكراماً بالغ الحد ، ويعرض على أنظارهم بغاية الاهتمام كل ما فى المدينة من مناظر شديدة الروعة .

ميدان السباق

وإذا كانت كنيسة القديسة صوفيا — كما قال بعضهم — ملكا لله وكان القصر للإمبراطور ، فإن ميدان السباق كان ملكا خالصاً للشعب إذ كان ميدان السباق محور الحياة البيزنطية ، نظراً لأن اتجاهه كان يحدد اتجاه كل من فى الكنيسة والقصر . فهنا كان الناس يعبرون عما تبقى للشعب الرومانى من حريات بما ينبعث من صيحات أحزاب السيرك ، وهى تطلب من الحاكم رفع المظالم أو إسقاط وزير مكروه من الشعب ، وفى هذا الملعب كان وندال إفريقية المنهزمون ، يساقون فى أرجائه بين تهاليل الظفر ، ويرغمون على السجود بين يدى الإمبراطور ، على حين تهتز جنبات حلبة السوق بالتهاليل وأناشيد النصر . وهنا أيضاً كان يحدث بين الفينة والفينة تنفيذ حكم الإعدام فى أعداء الدولة أو التنكيل بهم .

وكانت المنطقة الوسطى من ميدان السباق يقسمها فى الوسط صف من المسلات والعمد ، كان يرتفع حولها مقاعد رخامية بيضاء وتتسع لأكثر من ٦٠٫٠٠٠ مشاهد . وفى الطرف البعيد من الميدان انتصب بناء ضخم منحن فوق سقائف مقامة على أعمدة ضخمة فوق المنحدرات الدنيا . وفى منتصف الواجهة الجنوبية الطويلة قامت المقصورة ، وهى المبنى المرتفع الذى يدلف إليه الإمبراطور من قصره ، وهو أشبه بمرساة بارزة يطل منها على الحشد الثائر من السكان دون أن يخشى شيئاً . إذ كانت المقصورة الإمبراطورية وما يلحق بها من حجرات ، من الارتفاع بحيث لا تبلغها قذفات الحجارة

ولا تتعرض لهجوم الجماهير[١] . وكان يقف تحته فى إحدى الطنف رجال الحرس والموسيقيون . أما خط النهاية الذى كان يعتبر نقطة النهاية والبداية أيضاً للمتسابقين بالعربات ، فيتألف من صف من مقاصير حجرية تحتلها الأسر الأرستقراطية البيزنطية ، وفى أسفل المقاصير غرف تفصل بينها حواجز وتنطلق منها العربات للسباق ، فتدور بشدة عظيمة حول العمود المخروطى — وهى الصرح الأثرى الذى يحدد الطرف الآخر للسباق ، ثم تندفع راجعة على الجانب الآخر من المحور المركزى (Spina) تحت صيحات جموع المشاهدين الهائجين .

وحفلت الرحبات الفسيحة والسقائف المحيطة بميدان السباق بالمسلات والتماثيل الشهيرة ، المنقولة من روما أو المنتزعة من مدن بلاد اليونان أومصر وآسيا الصغرى والتى كانت تلكم الآثار تعتبر فى يوم من الأيام من أمجادها التليدة . وكان بعض هذه الآثار من التماثيل الشامخة التى كانت إمبراطورية الروم الشرقية البيزنطية مولعة بها ؛ وكان بعضها من تماثيل أباطرة الرومان فى هيئة الفارس . ومنها ما كان على الطراز الهللينى* فى أنقى صوره ، غير أنه لم يكن منها إلا عدد قليل من إنتاج مثالين كفيدياس وليسيبوس . وكان أهالى القرون الوسطى الميالون إلى الإيمان بالخرافات ينسبون إليها قوى سحرية ، وكانوا يستطلعون أسرار المستقبل فى الرسوم الهيروغليفية المحفورة على الأعمدة المصرية .

وصهر الصليبيون الفرنجة برونز هذه التماثيل لتحويله إلى عملة ؛ على أن

---

(١) ومع ذلك ففى الإمكان الدخول إليها عن طريق ميدان السباق كما تدل على ذلك فتحة نيقا .

* يفرق المؤرخون بين ما هو هللينى أى مرتبط بالإغريق القدماء ولغتهم وفنونهم وبين ما هو هللينستى أى منسوب إلى حضارة اليونان المشوبة بشوائب أجنبية بعد عهد الإسكندر (انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهللينستية ») (المترجم)

أحدهم أشفق على تمثال هرقل الذى بدا حالما حزيناً وعلى تمثال هيلين الذى كساه الجمال الوضاء ، « وقد انفرج فمها كالزهرة وبدا كأنما يريد أن يتكلم ، بينما كانت ابتسامتها تسلب روح من يشاهدها . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يصور عينيها العميقتين ، وتقويس حاجبيها ورشاقة جسمها الممتع الجميل ؟ [١] » .

ومن الطاقات العليا لميدان السباق كانت العين تمتد فوق المياه الصافية لبحر مرمرة فى الجنوب ، المغطاة لجاته بأشرعة سفن قادمة من ثلاث قارات ، ثم تنتقل إلى ما وراء هذه المياه من أحراش آسيا الصغرى وبيوتها الريفية وجبالها البعيدة ؛ وإلى الشرق كانت تقوم قباب القصر وحدائقه المتدرجة ، والمضيق الضيق والكنائس والدور المقامة فى جانبه الأقصى ، كما يشاهد فى الصدر الأوجستيوم الذى تقع فى خلفه قبة القديسة صوفيا الفخمة . وتُرى إلى الشمال الطرقات والميادين وقناطر السقاية وأقواس النصر بالمدينة والسقوف المتلألئة للكنائس التى لا حصر لها والأعمدة البرونزية العالية ذات الأفاريز الحلزونية ، وهى تعلو سطوح البيوت المتراصة ، ومن ثم تقتاد العين أماماً إلى خط الأبراج المربعة والأسوار الضخام والأراضى المترامية .

الخضر والزرق

على أن هذه المناظر الجذابة جميعها لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى النزاع العارم الناشب بين حزبى الخضر والزرق . ذلك أن أحزاب الملعب كانت مما ورثته الدولة عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ؛ وأصبحت بكل مدينة كبيرة

---

(١) نيقيتاس من شونز (Chones) ، ٨٦٤ .

من مدن الشرق تمثل أهم حقيقة فى حياة سكانها المشهورين بسرعة الإثارة . وكان كل مواطن عضواً فى أحد الحزبين اللذين اتخذا مقاعدهما فى جانبين متقابلين من ميدان السباق ، وقد انشحا بالأردية الزرقاء أو الخضراء ، وهما يتضرعان للقديسين بحرارة مبتهلين بالنصر لحزبهم أو يصرخون بالإهانات لخصومهم . فتدفق فى هـذا المجرى العجيب جميع مشاعر الوطنية وكل ما كانت تزخر به المدينة المستقلة من ولاء محلى للجنس والطبقة جميع سموم العداوات التى كانت فى الأيام الخوالى تستثير دم الإغريق بله جميع العداوات الحزبية . بل تأثر بها كل شىء حتى الفنون نفسها ؛ فكانت التماثيل والشعر تشيد بجمال وجرأة راكبي العربات معبودى الجماهير . وكان غوغاء أنطاكية أو القسطنطينية أقل اهتماماً بانتصارات الجيوش الرومانية فى المعارك الناشبة على الحدود السحيقة منهم بانتصار الخضر أو الزرق . ومن العسير علينا تعقب ما ينطوى وراء نضـال الحزبين المتنازعين من خصومة سياسية أو دينية. وكان كل من الجانبين يقذف الآخر دون تمييز بتهم الزندقة والخيانة والسحر أو مجافاة الفضيلة والأخلاق ؛ ولم تـكن تلك التهم سوى المظاهر المتداولة فى حلات السباب البيزنطى . على أن ما ارتبط به كل من حزبى الزرق والخضر بالمدن الـكبيرة بالإمبراطورية من روح الزمالة الماسونية الخطيرة، وما يثيره سباق العربات من الانفعالات الحارة التى قد تصل إلى فتنة مفاجئة ، بل إلى حد الثورة ، جعلت أحزاب السيرك قوة ضخمة فى السياسة . وحفظاً لمصلحة الدولة كان لابد من إجراء تنظيم دقيق لشئونهم . ومن ثم عين على رأس كل حزب عدد كبير من الموظفين ، يتولى انتخابهم هيئة تقابل ما هو معروف الآن بنادى الجوكية ، يتألف من مئات من الأثرياء ، الذين يؤدون من الاشتراكات ما يكفى للإنفاق على مؤسسات التدريب وعلى السباق ، فضلا

عما كان يجرى فى أثناء فترات الاستراحة من تحريش الكلاب بالدببة والألعاب البهلوانية . وكان لهؤلاء الموظفين امتيازات وواجبات خاصة فى مراسم البلاط، ولاسيما ما يتعلق منها بحفلات عيد ميلاد الإمبراطور وزواجه ، وكانوا مسئولين كذلك عن حفظ النظام فى ميدان السباق . وكان أتباعهم يكوّنون حرس الشرف فى المواكب الرسمية ، كما أن فصائل شرطة جند المدينة ، التى تتولى ضبط الأمن بالعاصمة ، وتقوم بالدفاع عن كل ما يوكل إليهم حراسته من مختلف أجزاء سورها ، كانت وثيقة الصلة بالمنظمات الحزبية . على أن أغرب ظاهرة فى هذه المنظمات جميعاً وإن لم يخل التاريخ من سابقة لها عند الرومان ، هى أن الإمبراطور نفسه كان ينتمى إلى أحد الحزبين ؛ وكانت نتيجة ذلك أن أحد الحزبين كان يلقى الحظوة والإيثار ويسمح له بقتل خصومه أو إرهابهم أو بتكوين جماعات من السفاحين (Mohocks) الذين يختالون بثيابهم العجيبة ويثيرون من الاضطراب ما يجعل المسير فى شوارع المدينة محفوفاً بالخطر ، وعلى حين أنه اجتمع فى الحزب الآخر عند كل أزمة جميع عناصر المعارضة للبيت الحاكم ، سواء أكانت معارضة شخصية أم دينية أم عنصرية أم أسرية ، وهى المعارضة التى تثيرها فيما يبدو البقية الباقية من شرارات الديمقراطية الإغريقية التى كانت تومض فى عالم لا يعرف إلا الاستبداد والحكم المطلق .

وكان أناستاسيوس يؤثر الخضر برعايته ، بيد أن چستين وچستنيان درجا على نقيض ذلك . وعندما كان مركز چستنيان غير وطيد ، مضى فى التحيز لحزب الزرق إلى أبعد الحدود ، بل إن دور العدالة نفسها قد أفسدتها المشاعر الحزبية . حتى إذا اطمأن چستنيان فى مستهل (٥٣٢) على ملكه ، أصدر الأوامر إلى المدن الكبرى بضرورة إخماد كل اضطراب يصدر عن

أيٌّ من الحزبين . وكانت نتيجة ذلك أن أمر والى مدينة بيزنطة بإعدام سبعة من الخضر والزرق ، اتهموا بالقتل فى أحد الاضطرابات التى وقعت حديثاً . ومن سوء الحظ أن حبل المشنقة انقطع مرتين : واستطاع جمع من الساخطين أن ينقذ اثنين من المحكوم عليهم ، وقدم الحزبان الالتماسات إلى الإمبراطور بالعفو . فلما رفض الإمبراطور الطلب ، اتحد الحزبان ، وعندئذ بدأ الخضر والزرق — مستخدمين كلمة السر « اقهر Nika » — الفتنة المعروفة باسم ثورة نيقا .

ثورة نيقا

ولم تنقض بضعة أيام حتى تطورت الحركة متخذة شكلا بالغ الخطورة . فقد أشعلت النار فى المبانى المحيطة بالأوجستيوم . وانحاز إلى الحركة سكان الريف الذين أثارتهم الضرائب الفادحة التى قررت عليهم ، فأصبحت فتنة الأحزاب ثورة شعبية . وطالب الثوار بعزل الوزراء الثلاثة المبغضين إلى الناس . وجزع چستنيان لما حدث من اضطراب فأذعن لمطالب الثوار ، بل إنه ظهر بشخصه فى المقصورة ، وأقسم على الكتب المقدسة بأن يرفع المظالم ويمنح العفو العام ؛ ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . فانسحب إلى القصر مشيعاً بصيحات الاستهزاء والإهانة ـ ولم تلبث الثورة الشعبية أن تحولت إلى ثورة . ولقى الثائرون تأييداً من كثير من النبلاء الذين كانوا منذ البداية يبغضون بيت چستين حديث النعمة ، وتُوج ابن أخ لاناستاسيوس إمبراطوراً رغم إرادته ، واقتادته إلى المقصورة الجماهير الثائرة التى هرعت إلى ميدان السباق . أما الإمبراطور الحقيقى وهو چستنيان ، فصار محصوراً فى قصره وأضحى مركزه فى حرج . وكانت الشكوك تخيم على ولاء أعضاء

السناتو باستثناء من كان منهم من صنائع الإمبراطور وأصدقائه ؛ وكان الحرس فى تردد ، فلم يكن الإمبراطور يستطيع أن يركن إلا إلى أتباعه الخصوصيين وإلى الجند من البرابرة الذين يخضعون لاثنين من قواده . فبادر چستنيان إلى عقد مجلس عاجل واستعد للفرار . على أن الموقف لم ينقذه إلا ثيودورا التى كان لخطابها الشهير رنين الصدق والإخلاص — رغم ما أضفاه عليه بروكوپيوس من طابع ثوسيديدس ، إذ قالت : « على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فلن أركن إليه . وذلك أن من يلبسون التاج ينبغى ألا يعيشوا بعد أن يفقدوه . ولا أحب أن أعيش حتى أرى اليوم الذى لا يهتف فيه الرجال باسمى إمبراطورة لهم . فانج بنفسك إن شئت يا قيصر ، فإن لديك المال ؛ والسفن فى انتظارك ؛ والبحر خال من كل حرس . أما أنا فإنى باقية هنا . عملا بالمثل القديم القائل بأن الرداء الأرجوانى هو كفن جميل » .

وتلى ذلك اتخاذ تدابير صارمة . وتقرر رشوة الزرق ليتخلوا عن الخضر ؛ وفى تلك الأثناء شق القائدان الموواليان للإمبراطور طريقهما إلى ميدان السباق عنوة من أبواب مختلفة ، وأعقب ذلك إجراء مذبحة رهيبة . ولم تتوقف المذبحة إلا عند حلول الليل ، وأسفرت عن مصرع ما يزيد على ثلاثين ألفاً فى ميدان السباق .

ولم يلبث إبناء إخوة أناستاسيوس التعساء — أن لقوا مصرعهم ، إذ بلغ من خوف چستنيان منهم أنه لم يبق على حياتهم ، وتقرر نفى عدد كبير من النبلاء . وكانت التدابير التى اتخذت — وإن خلت من روح الانتقام — كافية لضمان عدم تكرار ما من شأنه أن يفضى بأعضاء السناتو وبأحزاب السيرك إلى القيام بالأعمال التى أوشكت أن تحرم الإمبراطور من عرشه . وعلى حين

أن مركز الإمبراطور توطد فعلا وزاد قوة ، فقد قامت على أنقاض الحى المهدم الممتد فيما بين سوق قسطنطين إلى أبواب القصر ، مجموعة من المآثر الرائعة تتوجها كنيسة القديسة صوفيا ، التى تعتبر ، مع مجموعة القوانين التشريعية التى تحمل اسمه ، أبقى ما خلده چستنيان من آثار .

كنيسة القديسة صوفيا

وإن كنيسة القديسة صوفيا ، أى كنيسة الحكمة المقدسة ، قد أُعترف بها منذ ذلك الحين أنها « أجمل كنيسة فى العالم كله » على حد قول السير چون ماندڤيل . وقد أشاد بوصفها بروكوپيوس فى فقرة رصينة ، كما أن بولس المعروف باسم داعية السكوت ، وهو من رجال البلاط والشعراء البارزين ، استطاع فى قصيدته التى ألفها ، بمناسبة ما قام به چستنيان من افتتاح مبنى الكنيسة من جديد والتى امتزج فيها الخيال الشعرى والتفاصيل المعمارية الدقيقة ، أن يعرض صورة رائعة للكنيسة ، وأهم ما انعكس لديه عن بنائها من طابع وأثر ، وما امتازت به من الرقة والخفة البالغة الحد . فتراءت قبتها كأنما هى مدلاة من السماء ، إذ ترابط فى الهواء — فى شكل يبعث على الدهشة — كل أجزائها ، وقد تدلى كل جزء من الآخر وارتكز على الأجزاء التالية . وهذا التأثير أظهرته فى الواقع تلك القباب التى لم تكتمل استدارتها والتى استندت عليها من الشرق والغرب القبة الوسطى الكبيرة ، وما اجتمع لها من تناسب وتناسق رائع بين كل ذلك ، وزاد فى هذا التأثير ما كان ينفذ إلى الكنيسة من ضياء الشمس وما يصدر من إشعاع هادئ عن الرخام المتعدد الألوان الذى كان يكسو الجدران والأرض . ويجتاز الداخل إليها أقبية تحيط بها ينابيع

وسقائف مقامة على أعمدة . فإذا تجاوز الداخل غرفة القربان المزدوجة بأبوابها التسعة ، تجلى أمام ناظريه طول المبنى بأكمله ، أما الساحة المربعة الوسطى التى ارتكزت قبتها على أربعة أعمدة ضخمة انتصبت كأنها حائط صخرى قائم ، فيحف بها على الجانبين بهوان من الأعمدة من طابقين ومن خلفهما ارتصت مقاعد أعضاء البلاط ، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى . ووراء هذا المتسع كان يقوم منبر القراءة ، وهو يقف كجزيرة من العاج والفضة وسط بحر دوار من الرخام المجزع بخطوط خضراء يانعة أو حمراء قانية ، وقد انتثرت عليه النجوم الذهبية أو تطايرت عليه جداول بيضاء كاللبن على سواد براق ، أو كأنها « مثل زهرة الترنجان الأزرق النابت وسط العشب ، الذى ينتثر عليه هنا وهناك شذرات من الثلج الأبيض » . ويتألف الطرف الشرقى من ثلاث حنايا ؛ احتوت الحنية المتوسطة على الهيكل الذى يحجبه حاجز الأيقونات الفضى الضخم ، الذى انتصبت عليه تماثيل الشهداء والملائكة بأجنحتهم ، وقد أحنوا رءوسهم . وكان المذبح من الذهب الخالص تتدلى فوقه أسجاف حريرية تحمل صوراً أو رسوماً ، وما يعلو المذبح من مظلة هرمية الشكل ، وما يقع خلفه من منابر منحنية معدة للبطريرك ورجال الدين كانت تلتمع بالفضة المكفتة أبدع تكفيت وأتقنه . وفى الليل كانت مئات المصابيح المعطرة التى انتظمت ثريات ، أو التى صيغت بشكل سفن أو تيجان من الفضة، تضيء كل جزء من أجزاء الكنيسة ، بل يسطع ضياؤها خلال فتحات القبة فتؤلف مشعلا يسترشد به الملاح الذى يجتاز التيارات المعاكسة فى البوسفور « وقد استبد به القلق وهو يتوقع ـ وقد شدت أطناب ساريته ـ هبوب عاصفة من إفريقية » .

وبلغ فن العمارة المسيحى الذروة فى كنيسة القديسة صوفيا ؛ فما اشتهر به الشرق من لاهوت تجريدى ، تجسد فى الحجر . « فما من أحد يدخل الكنيسة للتعبد ، حتى يدرك أن هذا البناء الرائع لم يبلغ الاكتمال بقوة الإنسان أو مهارته بل بفضل من الله وتوفيقه . هناك يرتقى العقل سمواً حتى يتصل بالذات الإلهية . وقد أحس أنه (جلت قدرته) لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك الدار ، بل كان لا بد أن يؤثر بوجه خاص أن ينزل المكان الذى اجتباه » .

أصول الفن المسيحى

وكما أن قبة تلك « الكنيسة الكبرى » التى تحلق عالية كأنها « برج شامخ » يمتد فى كبد السماء ويشرف على المدينة من عَلِ فإن الكنيسة نفسها فاقت فى الأهمية كل ما ظهر حتى ذلك الزمان من كنائس لاحصر لها . ومنها كنيسة الرسل المقدسين بما حوت من قبور الأباطرة ، والتى لم تقل كثيراً عن كنيسة القديسة صوفيا فى وفرة ما حوت من الزخارف ، كما أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت النموذج الذى اتخذته كنيسة القديس مرقس بمدينة البندقية . ففى كل أرجاء الإمبراطورية ، كانت تشاد المبانى من جميع الأوصاف ، واشتهر كثير منها بتصميمات أصيلة أخاذة — ومن هذه المآثر السقايات والصهاريج بإقليم الجزيرة ، ومنها الجسور المشيدة من الحجارة عند التقاء الطرق بآسيا الصغرى فوق الجداول التى احتفرتها السيول المتدفقة من الجبال ، ومنها الحمامات والنافورات فى سورية ، ومنها القلاع الضخمة على أطراف إفريقية ، ومنها الأديرة المسوّرة فوق جبل سيناء ، ومنها الكنائس المنبثة حول أرجاء البحر المتوسط ، وعلى امتداد شواطىء بحر الأدرياتى إلى بارنزو وراڤنا . وتسلط فن العمارة البيزنطى فى أثناء القرن التالى بكل مكان

حتى بلغ روما ذاتها ، وبينما يمكن مشاهدة ذلك الفن ابتداء من قباب بريجو (Périgueux) إلى عقود كنائس كييف المقببة (Cupola) ، ومن آخن حاضرة مُلك شرلمان إلى واحات مصر العليا ، فإن مؤثراتها الزخرفية وطريقة عرضها للأحداث والشخصيات المقدسة ، قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً حتى بلغت إرلندة ونورثمبريا وألمانيا ، فيما جرى حمله إليها من التحف العاجية والمنسوجات والصور والرسوم الصغيرة .

كانت أصول الفن المسيحى على الدوام موضع جدال حاد لا يخلو من التحيز الدينى أو الوطنى . إذ إن المسألة اتخذت فى الآونة الأخيرة شكلا جديداً . فقد أغفل ما كان سائداً من قبل من المقابلة بين الشرق والغرب ، وتغيرت طرق معالجة المسائل بسبب المادة الضخمة التى توافرت ووضعت تحت الفحص والموازنة والمقارنة . وعلى الجملة ، لم يعد أحد يعد التغيرات التى حدثت فى تلك القرون طوفاناً جالباً للكوارث يجترف أمامه كل ما على الأرض من معالم ، بل ينظر إليها على أنها روافد وتيارات عديدة متشابكة فى مجرى مائى متواصل المسير لاتقاس أهميته إلا بقوة الدفع الذى تنطلق به الروافد والتيارات من خلال قنواتها جميعاً . ولا شك أن أشكال الفن المسيحى ، فضلا عن روحه إنما ترجع مصادرها إلى الشرق ؛ ولكن لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها التأثير الشرقى . فقد دأب كل من نهر النيل ونهر العاصى على صب مياههما فى نهر التيبر منذ عدة قرون خلت . فإن الإسكندرية ، وهى مركز التقاليد الهللينستية فى التشكيل والزخرفة والرسم المثالى لهيئة الإنسان ، كانت على سبيل المثال ، المنبع الأصلى لما انعكس فى المقابر الرومانية القديمة من زخرفة . أما أنطاكية التى تمثل أسلوب الساميين الواقعى الذى يساند ما كان لمثالى بابل وآشور من تقاليد عظيمة ، فقد علا نجمها وبرّزت بعد أن

صارت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأصاب الفن المسيحى من التغيير ما يجعله يوافق الأحوال الجديدة . فما تجلى فى جصيات (Frescoes) المقابر الرومانية من البساطة فى إظهار الفرح والحزن ، وما كان من رسوم آلهة الحب المتلاعبة وصور المتوسلين والمرساة والسمكة واليمامة ورموز الميلاد الجديد الأورفية ، كل ذلك حل مكانه ما اقترن بالمناظر التاريخية والعقائدية من رهبة وعظمة . فلم يعد المسيح فتى يونانياً رشيقاً ، ولا راعياً يحمل شاة ، بل صار ملكا مؤلهاً قديساً يحكم بلاطه الشرقى من ثنايا السحاب ، واتخذ صورة حزينة لرجل سامى ذى لحية يسهم فى آلام من لاحصر لهم من الشهداء الذين رسمت حكاياتهم بأوفى تفصيل على جدران الكنائس الباسيليكة[1] . وقد كان لعائر قسطنطين الدائمة الصيت ، لاسيما ماشيد منها فى بيت المقدس أثر فعال فى كل من بناء وزخرفة الكنائس التى كانت تنشأ بكل إقليم من أقاليم الدولة ، كما أن المنمنمات (Miniatures) والتحف العاجية وتذكارات الحجاج قد نشرت فى كل أرجاء الغرب الطرز والأشكال (الرسوم) التى تصور على سبيل المثال مختلف الرسل وأيام الخليقة أو نواحى التماثل بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس — وهى المادة التى يتكون منها فن العصور الوسطى .

المؤثرات الأسيوية

ويكمن وراء هذين المؤثرين التوأمين : مؤثرى أنطاكية والإسكندرية ، مؤثر ثالث أقدم منهما عهداً وأكثر غرابة ، ويرجع الفضل العظيم فى إظهار أهميته إلى استرزجوفسكى (Strzgowski) ، ويتمثل فيما كان لثقافات آسيا

---

(١) الكنائس الباسيليكة (Basilicas) كنائس فاخرة كانت تتخذ من دور المحاكم القديمة فى العهد الرومانى . انظر الحضارة البيزنطية . (المترجم)

البدوية من تقاليد واسعة الانتشار بما لها من أشكال سطحية ومن تصميمات شكلية لعساليج الكرم والزهور والحيوانات ، وما تتصف به من صفة تجريدية لاتمثيلية (أى لاتهدف إلى تصوير الأشياء) . وكما أن البدو الرحل الذين كانوا يظهرون بغتة من سهوب آسيا التى لم تتغير على كرقرون التاريخ ، قد خلفوا طابعهم فى الأقطار التى اجتاحوها ، فكذلك كان مؤثرهم الفنى قوياً محسوساً على يد الإسكيذيين والأتراك والعرب . على أن تأثيره امتد فى ذلك الوقت[1] خاصة عن طريق شمال فارس ، فانتقل قوياً إلى أرمينية ، التى تعتبر من أقدم كراسى المسيحية ، والتى اشتهرت بما ازدهر بها من الأسقفيات والكنائس والأديرة . وتأثر الفن السورى والقبطى أعمق التأثر بهذه الأشكال الأسيوية ، وعن طريقهما تأثر الغرب ؛ غير أن هذه المؤثرات الأسيوية اتخذت طرقاً أخرى للوصول إلى الغرب مباشرة . فالمعروف أن القوط أقاموا بسهوب جنوب الروسيا زمناً طويلا يكفى لأن يتذوقوا فيه ما ذاع رسمه عند الإيرانيين من أشكال الجواهر والحلى المتشابكة ، التى نشروها فى أثناء هجراتهم التالية فى شمال إيطاليا وغرب ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، حيث انتشر الطراز بين القوط الغربيين فضلا عن الميروفنجيين واللومبارديين ، ومن الأمثلة الدالة على أثره تلك الحيوانات الغريبة التى تتبدى فى بعض النحائت الرومانسية . ولعل الشكل التجريدى لذلك الطراز استهوى أذواق الشماليين المتقاربة مثلما حدث بإرلندة التى كان يعوزها فن الأشكال المنحوتة ، إذ لم يلبث دخول المسيحية أن أعقبه ظهور أساليب فنية زخرفية شرقية ، امتزجت بما

---

(١) على أن فن التصوير الساسانى الذائع بجنوب إيران مشتق من مصادر عراقية (أرض الجزيرة) وهللينستية .

فى الأنماط الـكلتية من أشكال القواقع الحلزونية والأبواق ، وتألف من ذلك ما اشتهر به كتاب المشبكات من تصميمات معقدة .

والفنان الإيرانى حينما يتخذ صور أشكال الناس والحيوان والنبات ، لا يستخدمها إلا على أنها أجزاء مكونة لرسم زخرفى كما هو الحال فى سجادة عجمية . وكانت رسومه مسطحة ليس بها شىء من إدراك التشكيل أو المنظور ، لا فى التصوير ولا فى النحت. فتقدير الأبعاد كان يجرى تمثيله بجعل الأشكال فى مناطق إحداها فوق الأخرى ، وكانت الألوان الزاهية توضع بعضها إلى جوار بعض دون تدريج فى قوة اللون . وكان المثل الأعلى عنده هو الحرص على بقاء النمط المستمر ، الذى تظهره الألوان المتقابلة ، أو تعاقب الضوء والظل ، لا خطة متسقة تهدى النظر إلى بؤرة متوسطة . وهذه الخصائص ذاتها ، شاعت أيضاً فى فن الإسكيذيين وفن الشعوب التركية والمغولية . وإذا نحن نظرنا إلى التغيرات التى طرأت على الفن المسيحى ووازنا بين الباسيليكات الرومانية الباردة ، وسطوحها العارية وبنائها المنظم النسق ، ونقوشها البارزة الناطقة التشكيل وتيجانها الغائرة الحفر ، وبين ما كان فى هذا الزمن من الـكنائس الجزلة الوهاجة والفسيفساء والجصيات (الفريسكوهات) الزاهية الألوان ، وأشكال الشهداء جادة التقاطيع ، وما كسا كلّ سطح من رسوم عربية وحليات مخرمة، أو زخارف رخامية، أو تيجان اتخذت كتلها شكل «الدانتلا» المتجمدة، فلن يكون من العسير علينا دون الالتجاء إلى الإشارة إلى شواهد الأشكال المعمارية وإلى التحف العاجية والمنمنمات ، أن ندرك أهمية هذا المظهر الثالث للفن البيزنطى .

التجارة البيزنطية

ولا شك أن اسم الفن « البيزنطى » له كل ما يبرره ، وذلك لأن المدينة العظيمة (القسطنطينية) كانت فى ذلك الأوان ملتقى كل هـذه المؤثرات وبوتقتها . وهى أيضاً مركز التجارة . « فإلى موانيها كانت تقلع كل السفن المشحونة بتجارة العالم يحدوها الأمل فى الربح ، بل إن الرياح نفسها كانت تعمل على جلب التجارة لملء أيدى سكانها بالثروات ».[1] فكانت الفراء والجلود تأتى إليها من جنوب الروسيا وحوض الدانوب ؛ ولـكن الشرق كان المورد الذى تستمد منه ثرواتها الرئيسية . فـكان البلاط والطبقات العليا تستهلك مقادير ضخمة من الحرائر والتوابل وأخشاب العطور ؛ كما أن بيزنطة أصبحت فى نظر الغرب مدينة ترف سحرى عجيب عندما كان الإمبراطور يرسل هباته من المنسوجات الحريرية والجواهر الثمينة إلى ملوك البرابرة وكنائسهم .

وكان ثمة طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط . فأقدمهما عهداً وأقصرهما ، هو الذى استخدمته القوافل فى عبور الصحارى الـكبرى بآسيا الوسطى ، وبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصُّغد تبلغ الحدود الفارسية فى مائة وخمسين يوماً . وبعد رحلة تستغرق ثمانين يوماً أخرى عبر فارس تبلغ القوافل نصيبين (Nisibis) وهى مدينة تقع على الأطراف الرومانية . فأما الطريق الآخر الذى أمعن القوم فى استخدامه منذ ١٦٠ للميلاد ، فهو الطريق البحرى . وكانت جزيرة سيلان (سرنديب) هى السوق المركزية الـكبرى ، التى يرد إليها ـ بحرا ـ الحرير والقطن وعود الند والفلفل

---

(١) انظر بولس داعية الصمت ، ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الهند الشرقية . ومن هذه النقطة (سيلان) اتخذت التجارة إلى الغرب طريقين بحريين . أولهما — وهو أهمهما — كان يتخذ طريق الخليج الفارسى إلى مصبي دجلة والفرات وإلى الأسواق الكبيرة بالحيرة . وكان الطريق الآخر يدور حول بلاد العرب ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانى اليمن على شاطئه الشرقى وموانىء الحبشة فى الغرب أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج ، وهى القلزم (Clisma) بالقرب من السويس وأيلة (العقبة Aila) على الفرع الشرقى . والواقع أنه لم يقم بزيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل ، شاهدوا حجر الجشت الذى يضارع فى الحجم كوز الصنوبر وهو يتألق فوق قمة المعبد بجزيرة سيلان ، أو رأوا ملوك الهند بما لهم من جيوش جرارة وقطعان من الفيلة . وترددت الأقاصيص عن جزيرة الساتير ، التى هى جزيرة بورنيو موطن الأورانج يوتان ، كما أن المصادر الصينية تشير إلى التجار الغربيين الذين يهبطون موانيها . وقد أقلع بعضهم إزاء الساحل الإفريقى ، ورأى ما كان لقوافل التجار من مراكز منيعة ، وما كان يدور بينهم وبين السكان فى داخل القارة من المقايضة الصامتة . وذلك لأنه كما ينبئنا كوزماس : فى خارج الخلجان الأربعة العظمى بالعالم وهى البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر قزوين (الخزر) يحيط بالعالم بحر كبير ، امتلأ بالضباب القاتل والتيارات العنيفة ، وكان مصدر خطر دائم على المسافرين . وحدث ذات يوم ، أن ظهرت بعض طيور الفطرس ، على مسافة غير بعيدة من زنجبار . وبدأت السماء تنذر بالخطر ، وأخذ الركاب والملاحون يهتفون فى رعب بربان الدفة أن يتجه بالسفينة إلى الميناء ، وأن يعود إلى الخليج ، لما تراءى لهم من أمواج المحيط . وتبعتهم طيور الفطرس الصخاب على ارتفاع كبير ، وهى علامة تدل على أن المحيط قريب منهم .

وروى كوزماس الراهب ، وهو تاجر متقاعد من الإسكندرية قصصاً ممتعة يصح الاعتماد عليها عن رحلاته وعن سبوع البحر والزرافات وغزال المسك وجوز الهند وشجر الفلفل وغيرها من الأشياء النادرة . على أن ما كتبه فى علم الكون لا يقل عن ذلك إمتاعاً ولكنه أقل جدارة بالثقة . وحقيقة أمره كما يعبر عنه جيبون يتلخص فى أن : « هراء الراهب عنده يختلط بالخبرة الواقعية للرحالة » . فهو يعمد إلى الأساليب والوسائل التى لا تزال مألوفة لدينا فيستخدمها فى تفسير الكتب المنزلة تفسيراً يدحض بعض المبادئ الوثنية الضارة التى تزعم أن الأرض كروية ، وأن لكل جزء منها ما يقابله فى الجهة الأخرى ، وعنده أن العالم مكون من صندوق مستطيل مؤلف من طابقين اتخذ نفس أبعاد تابوت العهد الذى أنشأه موسى « العليم الكبير بوصف الكون » . أما النجوم فتحملها الملائكة ؛ وتغرب الشمس خلف جبل عظيم ويعتبر كوزماس نموذجاً طيباً لما شاع بين الرهبان من الأفكار والتأملات ؛ غير أن نظريته الخاصة لم تلق قبولا كبيرا .

وكان معظم التجارة العالمية فى أيدى الفرس ؛ إذ إنهم يسيطرون على أسواق سيلان ويستمتعون هناك بامتيازات خاصة . وكان الملاحون الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر ، وكانوا يزورون كذلك الموانى الشرقية . أما تجارة الحرير بأكملها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها ، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر . وهذه الحقيقة تحكمت فى سياسة جستنيان التجارية . وبذلت جهود لإنشاء خط القوافل الشمالى الذى كان يجتاز بلاد التركستان ، ويعبر القسم الشمالى من بلاد فارس ويسير حول بحر قزوين ثم يهبط إلى الطرف الشرقى للبحر الأسود . ولجأت الدولة إلى استخدام خطة أخرى هى أن تتولى بنفسها الصفقات

مع فارس . وعقدت معاهدة تجارية قصرت استيراد الحرير على مدن ثلاث على التخوم : كالينكيوم فى إقليم أوسروئينى ونصيبين بأرض الجزيرة وأرتاكساتا بأرمينية . وفرضت عقوبة صارمة على التهريب ، وحدد القانون ثمن الحرير الخام الذى كان يتولى شراءه موظفون من قبل الإمبراطور ، بينما تقرر فى الطرف الآخر من الرحلة وضع حد أعلى لأثمان المنتجات المصنوعة فى صور وبيروت . على أن هذه الإجراءات التى اتخذت لم تظفر بنجاح تام ، وذلك لأنه حدث فى بعض الأحيان أن فارس كانت ترفض البيع بالسعر المعروض ، فيتعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب . وكانت الحكومة البيزنطية تضطر فى النهاية إلى دفع السعر الأعلى ، ولكنها كانت تغتنم تلك الفرصة لجعل التجارة احتكاراً بيد الدولة .

على أن جهود جستنيان الأساسية ، كانت موجهة إلى تجارة البحر الأحمر . إذ إن الإثيوبيين سكان أكسوم اعتنقوا الكاثوليكية فصاروا من ثم حلفاء له . وساعدهم جستنيان فى استعادة سلطانهم على الساحل المقابل لبلادهم وأعنى به بلاد اليمن . وكانت تجارتهم الواردة من الداخل واسعة النطاق — تشمل البخور والأفاويه والزمرد والعاج — وحملوا الذهب والعبيد من أقصى الجنوب ؛ وكان بيدهم أيضاً زمام التجارة العربية وقدر كبير من الأسيوية . ولم يبذل جستنيان لهم من تكريمه ومساعداته إلا لغاية فى نفسه : هى أن تشتد المنافسة بين الحبشة وفارس على تجارة الحرير اللازمة للغرب . ولكن قبضة الفرس على أسواق الهند وسيلان كانت قوية متمكنة ، ولذا لم يكن لهذه المنافسة أثر كبير . على أن حادثاً مثيراً أدى إلى حل هذه المشكلة ، ذلك أن راهبين تمكنا من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين ، حيث كان القوم يحافظون

على سرها بكل تيقظ وغيرة ، بأن أخفيا البيض فى جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران . ولم تلبث سورية أن زخرت أرضها بشجر التوت ، ولم تعد الإمبراطورية بعد زمن قصير تعتمد على ما يرد من الصين .

وعلى الرغم من التحكم الشديد والرقابة القوية التى اتخذتها الدولة فضلا عن الرسوم الكثيرة التى تقرر جبايتها ، فإن التجارة البيزنطية ازدادت ازدهاراً . فكانت سورية ومصر خلايا عاملة تعج بالصناعة الناشطة ، وكان البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه يعج بسفن التجار ، التى تجلب كل غريب معجب من الفاكهة والجواهر والأقمشة والأفاويه ، كما تحمل أنواع المينـاء المدهشة والوشى المونق والمصنوعات المعدنية الدقيقة الواردة من الشرقين الأدنى والأقصى إلى موانئ أوربا الغربية ؛ وكان الدينار البيزنطى (النوميزما) هو العملة الذهبية المتداولة بجميع أسواق العالم .

الحياة فى العاصمة البيزنطية

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نخطط للقارئ أصـول السياسة الإمبراطورية التى انتهجها چستنيان ، مستخدمين لذلك رمزاً هو تلك المبانى الضخمة التى أحاطت بميناء الأوجستيوم . واستكمالا للصورة لا بد لنا أن نصف الحياة الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع البيزنطى . ومن هذه الطبقات النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية والذين اتخـذوا لهم دوراً بالمدينة ومساكن بالريف وشغلوا وظائف فى إدارة الدولة والجيش والكنيسة ، واشتهروا بما دبروه من مؤامرات من أجل الوصول إلى السلطة ، وخاضوه من نضال من أجل الصدارة والتفوق وبالخروج للصيد أو لسباق الخيل فضلا عن

اتجاهاتهم الأدبية وثقافتهم المنتقاة . أما الطبقة الوسطى فتمثلها دوائر الجامعة بأساتذتها الذين تدفع الدولة مرتباتهم . ومدارس الحقوق والبيان التى اشتهرت بكفايتها ، وكانت وثيقة الصلة بجهاز الموظفين القائمين بالإدارة المدنية الذين يصور يوحنا ليداس فسادهم وتحيزهم لذوى قرباهم بألوان قوية زاهية . ويلى هاتين الطبقتين فئة التجار وأرباب المصارف وأصحاب الدكاكين ، بما اشتهروا به من الاعتدال فى حياة الترف والطباع الهادئة ؛ ولا مفر أيضاً من وصف الحياة العامة فى المدينة بما حفلت به من الأبروشيات ورجال الشرطة والمطافئ والمحاكم والمدارس والمستشفيات وما حوت من أطباء مقيمين وعنابر منفصلة فضلا عن ملاجئ أيتام ودور الصدقات والمخابز العامة وموارد المياه والصهاريج والسقايات والمجارى . وزخرت المدينة بالميادين الرائعة والشوارع الفسيحة والسقائف وأقواس النصر المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع ، وغصت المدينة بالتماثيل والحوانيت التى تعرض للبيع ما لديها من حرائر زاهية الألوان كلهيب النار ، ومن مصنوعات معدنية براقة ، وازدحمت الشوارع الفسيحة بألوان مختلفة من الناس ، من نبلاء فى عباءاتهم الثمينة وستراتهم ذات الأكمام المطرزة بأجمل النقوش ، يسير خلفهم أرقاؤهم الذين ارتدوا القلانس والسترات القصيرة ، أو امتطوا صهوات جيادهم التى طرزت سروجها بالذهب : ومن النساء فى ثيابهن ومحرماتهن الزاهية الألوان أو المتبتلين فى مسوح شهباء وسوداء ، ومن الرهبان والحجاج ؛ والبغايا والمتسولين والنشالين ؛ والحراس والجند المرتزقة من الصقالبة والجرمان والهون ؛ وتجار من سورية ومصر ؛ ومن المشعوذين والمنجمين والأطباء الدجالين الذين اتخذوا نواصى الشوارع مقراً لهم ، ومن القصاص فى الأسواق ، يروون قديم الأقاصيص الشعبية من آسيا أو يقصون أحدث أعجوبة أو آخر نكتة ، يروونها مقترنة بأسماء العظماء

حتى باسم الإمبراطور وقسيمه فى الحكم ، بينما اشتهرت الأزقة الضيقة الوعرة الانحدار بما يطل عليها من شرفات وبما حوته من دكاكين معتمة ، والمواخير وهى تنحدر مؤدية إلى الميناء المزدحم — الذى يرتاده البحارة الأجانب ويعتبر موطن الطاعون الذى يجتاح المدينة من حين إلى آخر ويقتل من سكانها خمسة آلاف كل يوم . وعندئذ تسير الأشباح فى الشوارع الخالية وتنفذ من كل شىء حتى الأبواب المحكمة الرتاج ، وتصدر الأصوات الرهيبة التى تحذر الضحية من النهاية المقتربة .

على أن الكنيسة تمثل قطاعاً مستعرضاً يمتد فى كل الحياة البيزنطية ، بما اشتهرت به من تعدد نواحى النشاط ، ابتداء من البطريرك ورجال إكليروسه والوعاظ بالكنائس الكبرى والمعترفين ، بدعة ذلك الزمان ، والقسوس العلماء حتى الرهبان الفلاحين والزهاد الجائلين . وزخرت المدينة وضواحيها بأديرة الرجال والنساء ، ومنها ما أسسه بل نزل فيه أحيانا نبلاء من أعضاء الشيوخ مع حريمهم ، ومنها ما كان ملجأ يأوى إليه المحتاجون فضلا عن الفارين من وجه العدالة . وذلك لأن الأديرة جزء مكمل للدولة ، كما يبين ذلك تشريع جستنيان . إذ جرى الإمبراطور هنا وفى كل مكان على ما كان لروما من نظرية تقليدية . وإذ كان القيام على الوجه الأكمل بالشعائر المقدسة (Sacra) كفل للجمهورية المحاصيل الجيدة (الخير والرخاء) ورد الأعداء عن أبوابها ، فإن جستنيان أعلن أنه : « لو أن هذه الأيدى الطاهرة والنفوس المقدسة صلت داعية للإمبراطورية ، لقوى الجيش ، ولازدادت رفاهية الدولة ورغدها ولازدهرت الزراعة والتجارة بفضل رعاية الله وإحسانه الأكيد » (الإضافات القانونية الجديدة ١٣٣ ، ٥) . ومهما غالينا فى أهمية الدين فى الحياة البيزنطية فلن نوفيه

حقه . فإذا كان ما يجرى بين الإنجليز دائماً من حديث إنما يدور حول الجو ، فإن حديث الناس فى بيزنطة يدور دائماً حول اللاهوت . وإذا كانت الأزمات الداخلية تعتبر أزمات اجتماعية واقتصادية ، فإن الأزمات الداخلية عند البيزنطيين كانت عقائدية . وتعتبر حروبهم صليبية ، ويعتبر إمبراطورهم نائباً عن الله فى الحكم . وفى أزمنة الهدوء والاستقرار ، كان للأديرة بما اجتمع لها من جيوش من الرهبان وحشود من الأتباع دور كبير فى تكوين الرأى العام . وكان للنساك العموديين الذين اتخذوا مقارهم على رءوس الأعمدة تأثير عظيم على السكان ، وكان الأباطرة يستجيبون لمطالبهم ويلتمسون نصيحتهم . وكانت الكنائس تزدحم إبان الشدائد بالمبتهلين الضارعين ، وإن العذراء نفسها لترى وهى تدافع عن استحكامات مدينتها المقدسة .

وكانت بيزنطة بحاجة ماسة إلى عدتها الروحية جميعاً . ذلك أنها تعتبر أساساً مدينة يسهل حصارها ، وكان ما يترتب على توقع الحصار من ثائرة مكبوتة يتجلى دائماً فى اتجاه سكان المدينة ونظرتهم إلى المستقبل . ففى كل مكان تذيع الطيرة ونذر التشاؤم ؛ فالتماثيل الوثنية تتحدث أو تسح بالعرق ، وتتنبأ النقوش القديمة بالمصائب الوشيكة الوقوع ؛ والأيقونات والآثار المقدسة تشفى المرضى وتدرأ سوء الحظ أو تزيح العدو اللدود بما يصيبه من موت مفاجىء . وتنتشر الشائعات الخارجة عن كل معقول ؛ فالإمبراطور ساحر ، وهو يمشى فى الليل بغير رأس وزوجته الملكة تلبسها شيطان . ويجن جنون السكان لما يحل بهم من زلازل وطواعين ؛ فهم يحملون متاعهم ويدفنون فى جوف الأرض ما غلا ثمنه من أشيائهم ثم يندفعون فى الطرقات . والعدو قريب منهم دائماً ؛ وعلى مسافة تقل عن ثلاثين ميلا

يقوم السور البرى العظيم ، الذى ظل الناس موقنين أمد فترات طويلة من الزمن أنه ليس من الحكمة المخاطرة بتجاوزه . وكم من جماعات خرجت للصيد ولم تعد عند المساء ؛ وكم من قرية ودير وبيت ريفى حول العاصمة اشتعلت فيه النيران فى أثناء الغارات المتعاقبة . وما القسطنطينية الإبرج يمتد بارزاً فى آسيا ، معرضاً لموجات الحشود البربرية التى تتوالى عليها من السهوب العظيمة أو الفيافى العربية .

وقد اتخذت القسطنطينية فى منمنمات العصور الوسطى صورة مدينة ترتفع فيها الأبراج تحت اسم مدينة القياصرة عند الصقالبة وميكليجارث[١] عند الشماليين ، فهى فى خيال الغربيين ، يغمرها ضياء الشمس . غير أنها من وجهة النظر الشرقية ، تعد دائماً مصدر النحس والشرور . فإذا عصفت السماء التمعت القباب ، وامتلأت الأسوار بالحراب ؛ ووقفت أمام التحصينات صفوف طويلة من خيام الآثار ، وأخذ الفرسان العرب يثيرون الرعب فى السهول المقفرة . وتضيق فى كل آن حلقة الخناق البربرى القاسى ، وهم يتحرقون شوقاً إلى انتهاب « المدينة التى تهفو إليها قلوب العالمين »[٢] .

---

(١) انظر هـ . ج . ولز « معالم تاريخ الإنسانية » للمترجم ج ٣ ص ٨٤٢ من الطبعة الثانية . (المترجم)

(٢) انظر قسطنطين الرودسى فى (Rev. des. Et. Grecques ج ٩ (١٨٩٦) ص ٣٨) .

الفصل الخامس

جستنيان والغرب

توفى جستين فى (٥٢٧) وخلفه فى الحكم جستنيان ابن أخيه ، بعد أن ظل سنوات عديدة الحاكم الفعلى للإمبراطورية . كان جستنيان رجلا متوسط القامة نحيل الجسم ، وكهلا فى منتصف العمر يغلب الصلع على رأسه وإن بقيت فيه شعرات مموجة وخطها الشيب ، وله وجه أحمر مستدير ، واشتهر بالبشاشة ولين الجانب وهدوء الطبع . كان شديد الدأب على العمل ، بالغ الاهتمام بتفاصيل الأشياء ، درج على أن يعد خطط ما ينفذه من حملات إلى الجهات النائية ، وما تجرى عمارته من القلاع بإفريقية ، وإعداد البرنامج الدقيق لكل ما يمارسه القنصل من ألعاب ، وتنظيم كل ما يدور من جدل حول وجوب الصيام فى عيد الصوم الكبير . وغلب على سلوكه العام الوقار والاتزان وضبط النفس ، غير أنه يفتقر فى بعض الأحوال إلى المبادرة والإقدام ، إذ ظهر ضعفه الشديد فى أثناء ثورة نيقا ، وأكبر شاهد على ما اتصف به من التردد ما كان لثيودورا ويوحنا القبادوقى عليه من تأثير — فإنه كان شجاعاً ولكنه متوسط الذكاء Une âme de valeur plutôt médiocre على حد قول ديهل .

ومع ذلك فإن ما أنجزه هذا الرجل من جلائل الأعمال قد أكسبه لقب جستنيان الأكبر . ويذكر له التاريخ أنه المشيد لكنيسة القديسة صوفيا وواضع أساس القانون الأوربى ، وهو الذى استرد الممتلكات الرومانية من

عمودى هرقل[١] إلى نهر الفرات. فالسيادة الرومانية (Imperium Romanum) عنده هى سر نجاحه . إن ذلك الفلاح المقدونى استطاع حين اتشح بالأرجوان ، أن يضع أسس العظمة التى اشتهر بها أولئك الحكام الكماة ، الذين بذلوا من الجهود الفائقة ما أبقى على الإمبراطورية طوال خمسة قرون[٢] . وكانت تتركز فى يد القابض على زمام الإمبراطورية جميع سلطات الكنيسة والدولة والقانون والجيش والإدارة . كان مسئولا عن رفاهية رعاياه ، سواء أكانوا فى الأقاليم الشرقية من الدولة أم فى الأقاليم الغربية ، التى نيط الحكم فيها فترة من الزمن بملوك الجرمان ، باعتبارهم نواباً عنه . كان الحامى للكاثوليك جميعاً داخل الإمبراطورية كانوا أو خارجها ، وكان العدو اللدود لكل الهراطقة والوثنيين . هذه هى النظرية التى تنطوى عليها كل أعمال جستنيان . إذ إن جمع القانون الرومانى إبقاء على التعبير عن الحضارة التى تخلفت عن أيام الجمهورية ، وتعزيز المركز الدستورى للإمبراطور بوصفه مصدراً للقانون (Fons iuris) . وكانت المراسم المحكمة التفاصيل داخل البلاط ترفع من شأن المنصب الإمبراطورى ، وإن النقوش المدونة على مبانيه التى توافرت بكل أرجاء الإمبراطورية وإطلاق اسمه على مدن عديدة لتسجل للأجيال التالية عظمة جستنيان ومجده . ورأى الإمبراطور أن لا بد من تطهير الجهاز الإدارى، وليس ذلك فقط لأن الإمبراطور يدين لرعاياه بواجب حسن الرعاية ، بل أيضاً لأنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أداء الضرائب الفادحة التى لا بد

---

(١) عمودا هرقل هما الصخرتان العظيمتان اللتان تحرسان مدخل البحر المتوسط وهما جبل طارق وجبل سبتة (المترجم)

(٢) انظر ف . و . بسل فى (Constit. Hist. of the Rom. Emp.) ج ١ ص ٢١٧ . « فأما العاهل نفسه فإنه عند توليه العرش ، فقد الكثير من شخصيته كثيرة الأهواء ، وأصبح وريثاً لروما ومجرد مفسر بسيط لسياستها الخالدة على الأيام » .

من إنفاقها على مشروعاته التوسعية . وفى قمة هذه المشروعات ، ما كان يراود جستنيان من حلم كبير ، وهو استرداد أقاليم الإمبراطورية الرومانية — إفريقية وإيطاليا وأسبانيا ، فضلا عن غالة وبريطانيا . ويضطر الإمبراطور إلى إهمال تخوم الدانوب والحدود الشرقية ، إذ يسحب منها الجنود لتقوم بالحملات فى الغرب . وينزل سوط الاضطهاد والنفى بإقليمى مصر وسورية صاحبتى مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) فينفر قلوب الناس فيهما منه ، على حين يمد بعونه البابوية وكاثوليك إفريقية وإيطاليا . وتتحطم الولايات بكل من الشرق والغرب بما فرض عليها من ضرائب لا تطاق ابتغاء تزويد الدولة بالمال اللازم للجيوش والقلاع ، وفضلا عن ذلك يزحف على الدولة من جديد الفساد والرشوة وابتزاز المال تحت ظل إفلاسها . ومن اليسير أن نوضح ما شمل البلاد حتى نهاية حكمه الطويل من سوء حال : حيث فرغت الخزائن وتضور الفلاحون جوعاً وتضاءلت الجيوش وأخذ الغرب ينفصل عن الدولة جزءاً جزءا ، والشرق يتهدد ويتوعد وتجردت الإمبراطورية من كل وسائل الدفاع بينما إمبراطورها الشيخ الفانى لا يعنى إلا بالمنازعات اللاهوتية ، كما أنه من اليسير كذلك القول بأن سياسة جستنيان جلبت الكوارث على البلاد ، وأن موارد البلاد لم تكن لتكفى إلا لحماية حدى الدانوب وفارس . ذلك كله حق لا نزاع فيه ؛ ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن جستنيان لم يحمل هنا من صفاته وخلاله إلا العيوب والمساوئ . ذلك أن « عصر بيزنطة العظيم » الذى حفر لها أثراً خالداً على قوانين أوربا وفنونها ، إنما يرجع إلى أفكار جستنيان عن الإمبراطورية الرومانية التى اقتضت استعادة الغرب ، وزعامة الكنيسة الكاثوليكية ، فضلا عن وضع القانون ، وإنشاء كنيسة القديسة صوفيا .

الإمبراطورة ثيودورا

والإمبراطورة ثيودورا تمثل أعجب نقيض لزوجها . اشتهرت بحب الترف والتعالى والغطرسة وحب السيطرة والميل إلى الانتقام ، وكانت بعيدة النظر لا تحفل بالمثل والمبادئ ، فسيطرت باستمرار على تفكير چستنيان وقراراته عن طريق الإقناع أو بالتآمر والدسائس . ويمكن التعبير عنها بلغة عصرنا الحديث بأنها امرأة واقعية وأنها ممن يعتقدن فى العمل المباشر ، وأنها قوة نافعة تقابل ما عرف عن چستنيان من الميل إلى التوسع ، ومن الخطط التفصيلية المحكمة التى يرسمها على الورق . ومن المستحيل أن نقرر مدى الصدق الذى يكمن وراء الفضيحة التى يرددها بروكوپيوس بإسهاب ولذة عظيمة فى كتابه « النوادر Anecdota » . وكيف أن لها ابناً غير شرعى ، وكيف كانت تهتم بكل ما يتعلق بالاتجار فى أعراض النساء ، كما أن ميولها نحو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح تتفق دون ريب مع الحقائق الرئيسية الواردة فى القصة بأنها كانت بغيا فى بيزنطة ، ثم فى الإسكندرية فأنطاكية ، حيث وقعت تحت سلطان زعماء ذلك المذهب . ولعل فى إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم ، وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم ، تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم .

ظلت ثيودورا حتى وفاتها فى ٥٤٨ تشارك چستنيان فعلا حكم الإمبراطورية . وكان ذوو الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات . أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم ؛ بل إن يوحنا القبادوقى نفسه ذا القوة والسلطان ، لقى جزاءه

آخر الأمر . كانت تمتلك ضياعاً عظيمة ، وتحصل منها على دخل ضخم ، تمكنت بفضله من إعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، بل لقد كانت يبلغ بها الأمر أحياناً أن تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور وعملائه دون أن يفوتها مع ذلك أن تصالح چستنيان وتسترضيه فيما بعد . ولعل أهم أعمالها وأبرزها نفوذها الهائل على السياسة الشرقية . ومن ثم فمن الطبيعى أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزية الآخذة بمذهب وحدة الطبيعة ، وبلغ بها الأمر يوم أديل من تلك العقيدة وتعرضت هذه الكنيسة للاضطهاد على يد بيزنطة ، أن آوت إليها قساوستها ورهبانها ؛ ولكنها كانت أوضح من چستنيان إدراكاً للخطر السياسى الذى تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية آسيا وسورية ومصر إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها . وبفضل مشورتها انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات خطة التسامح والتنازل التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

فتح إفريقيـــة

وبدأ فتح الغرب فى (٥٣٣) عندما أقلع بليساريوس أبرز قواد الإمبراطورية إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف من المشاة وما يقارب خمسة آلاف من الفرسان . وذهب معه المؤرخ پروكوپيوس ناصحاً ومشيراً ، فترك لنا رواية تفصيلية عن الحملة . وكان السبب الذى اتخذ ذريعة للحرب ، هو أن هيلدريك الملك الوندالى الضعيف ، الذى كان يميل إلى بيزنطة والكاثوليكية قد نحاه عن العرش چيليمر ، الذى كان يمثل الحزب المعادى لبيزنطة . وظهرت حجة أخرى مماثلة عندما حان غزو إيطاليا ؛ وامتدت المماثلة والمشابهة أيضاً إلى سير القتال . ففى كلتا الحالتين ، تبين أن الانتصارات السريعة

الأولى ليست ثابتة دائمة ، فلم يكتمل الفتح إلا بعد سنوات اشتد فيها القتال اضطراباً وارتباكا . ففى إفريقية ، كان كل شىء فى صالح خطة چستنيان الجريئة. فإن أسطول الوندال وشطراً كبيراً من قواتهم قد توجه قبل فترة وجيزة إلى سردينية لقمع فتنة نشبت بها . فهبطت الجيوش البيزنطية دون صعوبة على الساحل الإفريقى وزحفت على قرطاجة متخذة طرقاً ظليلة ، وهى تعسكر ليلا بين حدائق ذات بهجة . واستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . وكانت قوات الوندال تتألف من الخيالة الخفيفة ، والواضح أن الخطط الحربية السليمة تقضى هنا بالالتجاء إلى حرب العصابات إزاء خيالة خصومهم المدرعة ومشاتهم بطيئة الحركة . ولـكن الملك چيليمر آثر الاشتباك مع أعدائه فى معركتين حاشدتين . وانتصر بليساريوس فى كل من المعركتين رغم ارتكابه أخطاء خطيرة ، ولم ينقض زمن طويل حتى كانت قرطاجة فى قبضة يده ، وحتى كان الملك الوندالى الذى جعل منه پروكوپيوس شخصاً رومانسياً ، متقلب المزاج عجيباً ، قد سلم نفسه لينقذ أتباعه من مكابدة الآلام . وبدت الأمور وكأنما قد انتهى كل شىء ؛ فترك بليساريوس جيشاً صغيراً لاحتلال البلاد . ثم عاد إلى بيزنطة يمتع نفسه بما حازه من النصر ، وقد حمل معه نبلاء الوندال ، الذين اتخذ منهم كتيبة من الفرسان رابطت على الحدود الفارسية . واتخذت شتى الوسائل لإعادة الأحوال القديمة بإفريقية إلى نصابها . فأوثر رجال الدين الـكاثوليك بكل حظوة ورعاية ، بينما تعرض للاضطهـاد الدوناتيون والأريوسيون والوثنيون . وتقرر أن يسترد أصحاب الأملاك من الرومان أراضيهم ومزارعهم ؛ ولـكن الدعاوى القانونية التى مضى عليها قرن كامل كانت تنطوى على صعوبات خطيرة . يضاف إلى ذلك أن التذمر ما لبث أن

ظهر عندما تجلى للناس أن كل ما يؤدونه من الضرائب ويسهمون به فى إيرادات الإمبراطورية ، هى السبب الرئيسى فى اهتمام چستنيان بهم .

على أن الأيام كانت تختزن للولايات الإفريقية متاعب بالغة العنف . فبينما كانت الميداليات والنياشين تصنع بالقسطنطينية ابتهاجاً بالفتح ، وتتردد فى أرجاء ميدان السباق أناشيد النصر ، كانت تهدد قوة الرومان بإفريقية هجمات شيوخ البربر ، الذين دأبوا على الخروج من صياصيهم الجبلية فى غارات للنهب والتخريب . على أن سولومون القائد البيزنطى نجح آخر الأمر فى ردهم بل إنه تعقبهم فى التلال ، غير أن خطط القتال عند البيزنطيين (وهم قوم كانوا يحاربون دائماً وفق قواعد معينة) لم تكن صالحة لقتال هؤلاء الخيالة الخفاف والمغيرين الذين يركبون الإبل . وظاهر أن الدروع الثقيلة التى كانت لدى الجيوش الرومانية لم يكن الغرض منها إلا الدفاع لا الهجوم ، وترتب على التوسع فى استخدام القسىّ ، أن اشتد عكوف الرومان على القتال من مسافة بعيدة ، وهى حال لم تعد عليهم — بطبيعة الحال — بأى تحسن فى روحهم المعنوية . فذاع العصيان بين الجند وتوالت حوادث التمرد ، حتى لقد اضطر القائد العام فى بعض الأحيان إلى الفرار لينجو بحياته . غير أنه تعاقب على قيادة الجيش الرومانى من الأبطال أمثال سولومون وچرمانيوس ويوحنا التروجلى ما هيأ للدولة الرومانية أن تتغلب على تلك الأزمات ، وبفضل ما هو معروف بين شيوخ البربر (Moors) ، من الشقاق بسبب ما تفشى بينهم من عداوات وثارات دائمة ، لم يتيسر لهم القيام بعمل متحد ، ولذا فإن السلطة الإمبراطورية استتب لها الأمر بصورة مستديمة فى (٥٤٨) وأخلدت إلى الراحة آخر الأمر الأقاليم التى تعرضت للنهب والخراب .

وإن بروكوپيوس ليروح فى فقرة قوية وردت فى كتابه «التاريخ السرى» ينعى على فتح إفريقية ، أنه تكلف على حد قوله خمسة ملايين من الأنفس ولم يؤد إلا إلى فقر البلاد وخلوها من السكان وجعلها فريسة لغارات البربر وتعريضها للضرائب الفادحة الطاحنة والاضطهاد الدينى والعصيان العسكرى . وهناك من الدلائل ما يحملنا على الظن بأن فى هذه الصورة شيئاً من المبالغة . فالخرائب الكثيرة المتخلفة عن المدن الفاخرة التى لا تزال باقية إلى اليوم بتلك المنطقة تشهد — بما حوت من أسوار وسقايات يرجع الكثير منها إلى تلك الفترة ، — بما كان عليه چستنيان من بعد النظر . ولا شك أن قلاع الحدود تسترعى الاهتمام لا فى حد ذاتها فحسب باعتبار ما تعرضه من مظاهر القلاع فى ذلك العصر ، كالخندق والحصن والفناء والأبراج الجانبية الواقية للجناح وفتحات الرماية — وكلها ترتبط عادة باستحكامات العصور الوسطى ، ولكنها أيضاً تسترعينا باعتبارها جانباً من نظام دفاعى ضخم يمتد إلى منحدرات جبال أوراش ومرتفعات نوميديا ، وفى مناطق مسورة يلوذ بها الفلاحون فى أثناء غارات البربر . ولا تزال الكنائس والأديرة الفسيحة الواقعة فى داخل البلاد تحتفظ بطراز الباسيليكة الرومانى الذى تزينه الزخارف البيزنطية ، على حين يغلب التأثير اليونانى فى المناطق الساحلية، كما أنه ترك آثاره واضحة على التيجان الرقيقة للأعمدة والزخارف الجانبية . أما الأرضيات المصنوعة من الفسيفساء فإنها تصور بألوان مشرقة انفعالات ميدان السباق وأزياء الزمان ، ويتجلى نشاط الكنيسة فى شدة ازدهار المجامع الكنسية ووفرة الأدب أعنى المؤلفات المتعلقة بالمناظرات الدينية . وتدل البقايا الكثيرة للضياع وأعمال الرى ومعاصر الزيت ، على ما اشتهرت به البلاد من الخصوبة الواسعة الانتشار . ولعل خط الساحل فى إقليم طرابلس إلى طنجة ، قد بدا فى عين الغزاة المسلمين بعد

هذا الزمن بقرن ، كأنما هو بستان واحد مستديم تناثرت فيه المساكن المتباعدة .

عوامل ضعف القوط الشرقيين

على أن التدخل الإمبراطورى فى إيطاليا جاء فى الوقت المناسب . وذلك أن التوازن الذى خيم على دولة ثيودوريك الثنائية قضت عليه وفاة تلك الشخصية العظيمة التى كانت ترفع بيدها ميزان الأمور . وتولت ابنته أمالا سونثا الوصاية على ابنها البالغ عشر السنوات ، والذى تولى العرش عقب وفاة جده . وتمخض حكم المرأة عن مشاكل ما لبثت حتى عجلت بانهيار نظام ثيودوريك . فإن تربيتها الرومانية جعلت المقاتلين القوطيين يرتابون فى أمرها ، على حين أن بيزنطة استخدمتها ، أداة وألعوبة فى سياستها الإمبراطورية ، بل لعلها لم تحفل بها عند وفاتها . ونظراً لأنها كانت تعد العرش حقاً خاصاً لأسرة آمال ، فإنها صممت وابنها لا يزال حدثاً تحت الوصاية أن تحتفظ بالعرش لو مات الصبي ؛ ولكنها كغيرها من أبناء شعبها كانت ضعيفة الإحساس بالوحدة القومية ، فلم تتردد قط فى التفاوض سراً مع چستنيان عندما أصبح مركزها حرجاً .

ومن الحقائق التى ترشدنا فى هذا المقام أن كل من تعاقب على العرش من زعماء القوط أمثال : ثيوداهاد وويتيچيز وهلديباد وإيراريتش وتوتيلا — كان يعد علاقاته بالإمبراطور أمراً شخصياً بحتاً ، لا يختلف فى ذلك عن ثيودوريك مقدم الجندشبه المستقل ، فى مساوماته مع الإمبراطور زينون قبل خروجه لفتح إيطاليا . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه يرجعون بصورة

متناقضة غير منطقية إلى التسوية التى عقدت مع أناستاسيوس[١] معتبرين إياها نوعا من الأساس القانونى لدولة رومانية قوطية . وقد فاتهم تماماً أن مركز ثيودوريك الذى لم يتحدد قصداً لم يحفظه فى الواقع سوى المحالفات الكثيرة التى عقدها مع الدول الأجنبية ، فضلا عن الوفاق والانسجام الدينى والسياسى الذى ساد فى الداخل ، وبذلك تهيأ له أن يواجه بيزنطة بجبهة وطيدة . غير أن ارتفاع شأن قوة الفرنجة ومؤامرات الكاثوليك وتذمر طبقة رجال السناتو قد قوضت هذا البنيان فعلا قبل وفاة ثيودوريك .

ولما لم تستطع أما لاسونثا الصمود تلقاء معارضة القوط ، صممت على أن يشركها فى العرش ابن عمها ثيوداهاد ، وهو طراز آخر للبربرى ذى الطابع الرومانى الطامع وإن يكن أعجب شأناً . كان ثيوداهاد شغوفاً بفلسفة أفلاطون ميالا إلى الهدوء والسلام ، وكان لديه عدا ذلك نزعة تسلطت عليه تماماً ، هى الحرص على امتلاك الأراضى . لقد كان على استعداد تام — كما أكد ذلك لجستنيان فى مفاوضات تالية — لأن يتنازل عن إيطاليا فى مقابل الحصول على مزرعة ومنصب فى البلاط الإمبراطورى . وسجنت أما لاسونثا بأمره بجزيرة وسط بحيرة بولسينا ، حيث تم إعدامها بعد ذلك . وكانت تلك هى إشارة بدء الهجوم البيزنطى . إذ تقرر غزو إيطاليا براً من جهة دالماتيا ، وبحراً من إفريقية . ففى (٥٣٦) استولت قوة إمبراطورية على سالونا عاصمة دالماتيا . على حين قاد بليساريوس جيشاً تقارب عدته ٧٫٥٠٠ رجلا . ولا شك أن قلة عدد قواته شىء يسترعى الانتباه ، وذلك بالنظر إلى أهدافه ومنجزاته الكبيرة . ولكن قلة العدد كان يعوضها إلى حد كبير التنظيم الفائق والخطط

---

(١) انظر ص ١٢٤ .

الاستراتيجية التى قاوم بها جموع البرابرة غير المتماسكة . على أن قلة العدد منعته من الناحية العملية من الاشتباك فى معركة حاشدة ، وهذا هو العنصر الذى تحكم فى طبيعة الحرب التى تلعب فيها القلاع والحصارات دوراً بارزاً .

فتح إيطاليا

وفى هذه الظروف تجلت عبقرية بليساريوس العسكرية فى أعلى ذراها . كان المثل الأعلى للجندى المحترف ، فكان شجاعاً فى ساحة الحرب واسع الحيلة فى أساليبه ، فتعلق به الجند على اختلاف عناصرهم فى أثناء حملاته فى القارات الثلاث ، ولهذا السبب ذاته كان جليل القدر عند جستنيان ، إذ لم تكن له مطامع سياسية ، ولم ينحرف قط عن ولائه للعرش . ومع ذلك فقد أثار نجاحه في نفس الإمبراطور شبهات قوية ؛ فقتر عليه فى الرجال والمال . ولقى من حاسديه من رملائه فى القيادة كل شر وعناء ، وكانت الحاسة السياسية لديه ضعيفة ، فأوقعه ذلك فى أخطاء جسيمة ، كما أن انقياده لزوجته أنطونينا ، الصديقة الحميمة للإمبراطورة ، قد ورطه فى المؤامرات المعقدة التى كانت تحاك بالقصر . ولذا فإنه قصر دون بلوغ مرتبة البطولة الحقة . على أنا لو وازنا بين حدوده وعيوبه ما خفى منها وما ظهر ، بما حققه من أعمال رائعة لتبين أنه كان بحق أعظم قائد فى زمانه .

سقطت صقلية دون تسديد رمية واحدة ؛ إذ كانت حاميات القوط فيها ضعيفة لا تكاد تفى باحتلالها ، كما أن أصحاب الأملاك فيها استقبلوا الجيوش البيزنطية بالترحاب . وكانت ناپولى حاضرة القوط فى كامپانيا هى الهدف التالى للقوات البيزنطية ؛ فلم تلبث أن أذعنت للهجوم بعد حصار مثير ، ولم يخل الأمر من بعض الأحداث المؤسفة ، إذ كان سكانها — وهم من التجار —

أقل استعداداً من صقلية أو بروتيوم الإقطاعية للترحيب بالقوات الإمبراطورية، التى يبدو أن من كان بها من هون وإسوريين وصقالبة ، كانوا يبعثون الخوف فيهم أكثر من القوط .

وفى تلك الأثناء استبد اليأس والفشل بالملك ثيوداهاد ، — فسعى للتفاوض مع الإمبراطور ؛ على أن انتصار جيوشه فى دالماتيا دفعه إلى نبذ العرض الذى أسلفناه إليك ، ومن ثم لم تسفر المباحثات بينهما عن أية نتيجة . وكان سقوط ناپولى هو الذى قرر مصيره المحتوم . إذ خلعه الجيش القوطى ، وانتخب مكانه ويتيچيز أحد قواد ثيودوريك . وكانت المستقرات القوطية الرئيسية تقع بشمال إيطاليا ، فبادر ويتيچيز إلى الانسحاب إلى راڤنا لينظم قواته بعد أن ترك روما مفتوحة للبيزنطيين ، فاحتل بليساريوس المدينة (روما) . وقضى شتاء عام (٥٣٦ — ٥٣٧) فى عمارة الأسوار المتخربة ، إدراكا منه لأهمية التمسك بالعاصمة ، رغم ما تراءى لكثير من الرومان ، من سخافة الفكرة التى تجعل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل يتولى الدفاع عن محيط مدينة يبلغ اثنى عشر ميلا من هجمات جيش يفوقهم فى العدد عشر مرات أو عشرين مرة . وإن قصة الحصار ليست إلا سلسلة من الأحداث الجذابة المثيرة ، التى تبدأ بفرار بليساريوس على جواده الأشهب كلون الحديد ذى الغرة البيضاء ، من الخيالة الذين تعقبوه ، ووصوله أمام أسوار المدينة ، التى أبت أول الأمر أن تفتح أبوابها لذلك الراكب المسربل بالدم والنقع[1] . واستشرت الخيانة والرعب فى الداخل . وأوشك القوط أكثر من مرة أن ينفذوا إلى المدينة ، بأن لجئوا إلى نقطة ضعيفة ، أو عمدوا إلى الزحف أسفل بهو الأعمدة

---

(١) النقع هو غبار الحرب كما فى البيت المشهور . (المترجم)

بكنيسة القديس بطرس ، فيردهم أعداؤهم بمهاجمتهم لهم بالتماثيل المحطمة المنتزعة من مقبرة الإمبراطور هادريان . واستمات بليساريوس فى الدفاع حتى وصلته الأمداد المتأخرة ، وفى مارس (٥٣٨) رفع الحصار عن المدينة بعد أن دام سنة كاملة . فأضحى الطريق وقتئذ ممهدا لقيام بليساريوس بزحف جديد ، وهوجمت معاقل القوط المنيعة بوسط إيطاليا ؛ ولم تنته سنة (٥٣٩) حتى أطبقت الجيوش البيزنطية على راڤنا . وتلى ذلك قصة عجيبة ، توضح بقوة أخلاق القوط والبيزنطيين . ذلك أن چستنيان لما شعر باحتمال نشوب الحرب بينه وبين فارس ، أظهر استعداداً لمنح القوط شروط الصلح ، بأن يترك لهم الاحتفاظ بما يملكونه من الأراضى الواقعة شمال نهر پو . على أن بليساريوس أبى أن يتجرد من نصره فرفض التصديق على الاتفاق . وغضب القوط لذلك وجزعوا إذ وجدوا أنفسهم بلا أرض يستقرون فيها فعرضوا عليه التاج ، وقبل ويتيچيز التنازل عن عرشه . وقبل بليساريوس العرض ، ولكنه ما كاد يدخل راڤنا حتى أظهر ما كان يضمره من الخيانة . وأسقط فى يد القوط ولم يعد فى إمكانهم أية مقاومة بعد ذلك . واقتيد ويتيچيز وحاشيته أسرى إلى بيزنطة . وأضاف چستنيان إلى ألقابه ، لقب ملك القوط (Gothicus) أيضا ، وأرسل من قبله والياً پرايتوريا ليتولى الحكم فى الإقليم الذى استرده ، على حين نقلت معظم القوات إلى الشرق .

وكان ما عقب ذلك من أحداث يعد فى رأى بيزنطة مجرد عصيان . بيد أنه كان عصياناً عارماً جداً . واحتاج رد إيطاليا إلى الطاعة إلى أربعة عشر عاماً من الحرب الشعواء . إذ إن القوط بزعامة توتيلا المشهور بصلابة الإرادة استطاعوا أن يجعلوا سلطان بيزنطة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، ظلا لا يتجاوز

ما كان لهم من حاميات بالمدن الساحلية والمعاقل المتفرقة . وكان هدفهم هو بسط سيطرتهم على السهول ، وبهذه الطريقة يضمنون لأنفسهم الحصول على الجزية . التى تؤدى إلى الخزانة البيزنطية . وفى الحين نفسه عمد القوط بمهارة إلى الإفادة من كراهية الشعب لليونانيين وتحويله إلى جانبهم ، فساندوا صغار الفلاحين على سادتهم . وكان أصحاب الأملاك الذين تجردوا من أملاكهم ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يؤيدون نظام الطبقات ، يعدون توتيلا طاغياً وزنديقاً . أما الفلاحون الذين تخلصوا من كثير من أعمال السخرة الإقطاعية (Corvées) التى كانت تناط بهم ، فإنه هبط عليهم كمنقذ أرسلته العناية الربانية . ولم يكن بوسع الجيوش البيزنطية الصغيرة أن تلتقى به فى ميدان القتال ؛ وتعرضت روما للسقوط والاسترداد مرتين . وبعد قتال يائس لم يشتبك فيه الرومان إلا بوسائل ضئيلة حدث آخر الأمر أن تقرر استدعاء بليساريوس ، فكان ذلك اعترافاً صريحاً بالإخفاق . وفى (٥٤٩) رأس توتيلا رسمياً حفلة ميدان السباق بروما ، وبدأ فى تجديد مبانى العاصمة ، بينما أغارت أساطيله على شواطىء دالماتيا للنهب والتخريب . « فأضحى الغرب بأكمله فى قبضة البرابرة » . على حد قول بروكوبيوس .

وإذ بلغ الأمر هذا الحد قرر جستنيان أن يرسل للمرة الأخيرة ، من القوات ما يكفى فعلا للقيام بحملة حربية ، ولعل الذى حفزه على ذلك ، المهاجرون الرومان أصحاب النفوذ القوى فى بلاطه . واستطاع القائد المحنك نارسيس الخصى بعد أن تعطل فى دالماتيا أن يتجنب فى سهولة ويسر ما أقامه توتيلا من استحكامات دفاعية ، بأن اتخذ الطريق الساحلى إلى راڤنا . وكان الجانب الأكبر من جيشه مؤلفاً من البرابرة اللومبارديين

والهيروِل والهون ، وكانوا من وفرة العدد ما يكفى لمواجهة العدو فى الميدان ، بل امتازوا على العدو بما كان لنارسيس من دراية بالفنون العسكرية . وعند ذلك أصبحت المعركة الفاصلة وشيكة الوقوع . وسارع توتيلا من روما للقائه ، فهزمت القوات القوطية هزيمة ساحقة فى معركة كبرى قرب بوسطا جالوروم (٥٥٢) بجبال الأپينين . ولقى توتيلا مصرعه . ووقف القوط وظهورهم إلى السور واستماتوا فى القتال ، غير أن حاميات جنوب إيطاليا استسلمت فى (٥٥٥) ؛ وصمدت برسكيا وڤيرونا حتى (٥٦٣) بفضل مساعدة قوات من الفرنجة .

ويقول مؤرخ ساذج إن نارسيس أعاد إلى إيطاليا « سالف مرحها وسرورها Pristinum Gaudium » . وإن « القرار التنظيمى » الذى أصدره چستنيان فى (٥٥٤) إنما هو محاولة متعمدة منه لرد عقارب الساعة إلى الخلف، فإن لم يكن الرد إلى (٤٧٦) فهو على الأقل إلى ما قبل المدة التى انتزع فيها توتيلا أملاك أصحاب الأراضى وحرر من لديهم من موالى الأرض (Serfs) . ومنذ تلك اللحظة استقر فى راڤنا نائب إمبراطورى Exarch له القيادة العليا على الإقليم كله ؛ وتقرر الاستغناء عن كل الموظفين والمدنيين وتعيين غيرهم ، واعتقد چستنيان أنه بفضل جهوده قد تم إرجاع البلاد نهائياً إلى سيرتها الأولى . غير أن ما فعله كان فى الواقع شيئاً يختلف عن ذلك اختلافاً بليغا . ذلك أنه بتدمير قوة القوط أزال الحاجز الوحيد الذى يمكنه الوقوف فى وجه حشود اللومبارد البرابرة ، الذين تدفقوا على إيطاليا بعد موته ببضع سنوات .

بيندكت أسقف نورسيا

على أن عمال الخراج عند چستنيان أتموا ما حل بالبلاد من الخراب والدمار . إذ خلت المناطق الريفية من سكانها وتداعت المدن . وصارت روما بعد أن سقطت خمس مرات فى أثناء هذه الحروب مكاناً قفراً ، انتشرت به الأطلال والخرائب . وولت تجارة روما ، فصار لزاماً على سكانها منذ ذلك الحين ، أن يعتمدوا فى معاشهم على صدقات الحجاج وإحسانات البابوية . وتوقفت السقايات ، وبطلت الحمامات العامة ، على حين أن سهل كامپانيا الخصيب لم يلبث أن تحول إلى ربوع موحشة ومباءة للملاريا ظلت تحيط بالمدينة حتى الأزمنة الحديثة . وزال كل أثر لما كان معروفاً فى الماضى من «الخبز والملعب». إذ إن آخر ما جرى من الألعاب كان فى عهد توتيلا . وقرر چستنيان آخر الأمر منع إرسال الميرة المجانية من القمح إلى روما . واختفى القناصل ومجلس السناتو رويداً رويدا . وهاجر كثير من النبلاء إلى بيزنطة ، تاركين قصورهم للخراب والأطلال .

وزحفت على إيطاليا كلها ظلال الاستسلام والتبلد . ولم يبق للرجل الذى يأنس إلى الحياة الهادئة ما يأمله فى هذا العالم . ولم يعد له من ملاذ يلجأ إليه غير الدير ، وسرعان ما انتشرت ببلاد الغرب قاعدة الديرية التى وضعها بيندكت النورسى والتى سدت هذه الحاجة ، فحلت محل القاعدة القديمة التى سبق انتقالها من مصر إلى أديرة جنوب فرنسا . ومع أن قاعدة بيندكت نقلت من القواعد السابقة لها قدراً كبيراً ، فإن ما انطوت عليه من روح إذلال النفس ، والحياة المعتدلة المنظمة ، جعلها شديدة الاختلاف عما كان سائداً

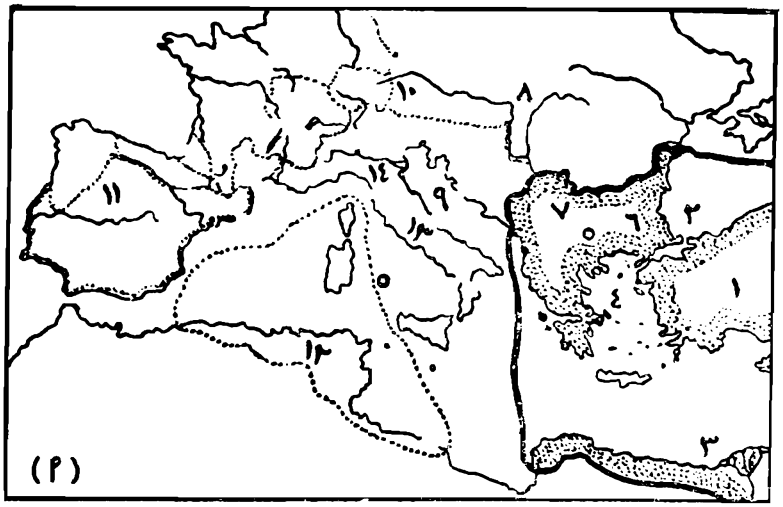

(أ) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى عام ٥٢٦ م

١ ــ الإمبراطورية الرومانية ٢ ــ القسطنطينية ٣ ــ الإسكندرية
٤ ــ أثينا ٥ ــ سالونيكا ٦ ــ أدرنة
٧ ــ نيش ٨ ــ اللومبارد ٩ ــ مملكة القوط الشرقيين
١٠ ــ البفاريون ١١ ــ مملكة القوط الغربيين ١٢ ــ الوندال
١٣ ــ روما ١٤ ــ رافنا

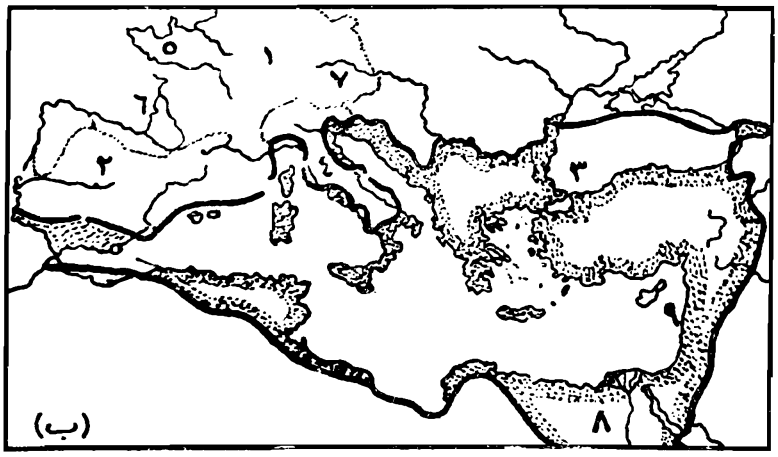

(ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٣ ــ ٦٠٠ م

١ ــ مملكة الفرنجة ٢ ــ مملكة القوط الغربيين ٣ ــ القسطنطينية
٤ ــ مملكة اللومبارديين ٥ ــ بريتانى ٦ ــ بوردو
٧ ــ الآلامان ٨ ــ مصر ٩ ــ بيروت

بإقليم طيبة من التنسك الفردى ، الذى اتسم بالحماسة وروح المنافسة . إذ أجازت قاعدة بنيدكت للمريدين قدراً كافياً من الطعام والنوم والرياضة واللباس ، ولم تستلزم جهداً مفرطاً من الناحية الفكرية أو الجثمانية . ولم تكن ظهرت بعد صنوف الخدمات التى قدمها البنيدكتيون المتأخرون[١] فى حقول التعليم والزراعة والبناء . ومع ذلك فقد أدخل كاسيودوراس نسخ الكتب فى دير أسكويلاس الذى أنشأه فى أواخر أيامه ، ولا شك أن شغفه الشديد بالأدب الكلاسيكى وحبه للسان اللاتينى النقى الآخذ نقاؤه فى الزوال ، قد احتفظ للأجيال القادمة بشعر ڤرچيل وهوراس، ونثرشيشرون وكوينتليان، فضلا عن ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العتيق الذى قدمه لقراء العصور الوسطى كل من لاكتانتيوس وچيروم وأمبروز وأوغسطين . والظاهر أن أتباع بنيدكت قد عادوا بعد وفاته بقليل إلى نسخ الكتب ؛ وإن لم يكن بنيدكت نفسه وهو الملقب بالعالم بالفطرة والعاقل بالموهبة (Scienter Nescius et Sapienter ind octus)[٢] ممن يشجعون القيام بذلك . إذ الواقع أن جوهر قاعدته هو السكوت المطلق (Summa Quies) . وهى حقيقة يمكن العثور عليها (نقلا عن الإيقاعات اللغوية الفائقة التى اختتم بها نيومان فقرته الدائمة الصيت) فى قول بنيدكت لا شىء يستحق الإعجاب (Nil admirari) ؛ وفى إغفال كل ما فى الدنيا من الخوف والرجاء ؛

---

(١) إن الدوم كثبرت بتلر يميز فى O.S.B. بوضوح بين فكرة بنيدكت الأصلية وبين التطورات التالية التى ألمت بها فى (Benedictine Monachism) الطبعة الثانية ف ٣ لندن ١٩٢٤ .

(٢) Greg. Dial. ii. Praef.

وفى الصلوات اليومية وفى القوت اليومى وفى العمل اليومى ، إذ لا يختلف يوم عن آخر ، إلا فى كونه أقرب من سابقه بخطوة إلى ذلك « اليوم المشهود » الذى سوف يبتلع الأيام جميعا ، وهو يوم « الراحة السرمدية » .

اضمحلال روما

على أن نجاح چستنيان فى مغامرته بالغرب اكتنفته بعض ظلال قاتمة . فإن الفتوح الباهرة التى أحرزتها قوات لاتتناسب وإياها مطلقاً ، كانت تقف قبالتها وتغض من شأنها ضروب شديدة من الضعف والمخاطر . وجملة القول ، إن قبضة بيزنطة على البحر المتوسط الغربى كانت قبضة دولة بحرية . فإن الدولة وإن تخلت عن الولايات الغربية بإفريقية ، لم تبرح تسيطر على المدن الساحلية التى فى يدها حتى مضيق جبل طارق . واستردت من القوط الغربيين المدن البحرية الواقعة بجنوب أسبانيا . وكان إقليم بروڤانس عند ذاك فى أيدى الفرنجة ، واقتصرت ولاية إيطاليا على شبه الجزيرة وحده ، فلم تعد رايتيا (Raetia) ونوريكوم فى أيدى الرومان . وترتب على الفتوح الوندالية أن انضمت جزيرتا كورسيكا وسردينية إلى إفريقية ، بينما صارت صقلية تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . ودل سير الحرب القوطية على ما سوف يحيق بأجزاء إيطاليا الداخلية من مصير ، إذ لم تكن القوات الإمبراطورية كافية لحماية تلك الأجزاء من غارات أهل الشمال ، ولذا لم يلبث أن تألف منها بعد زمن قصير الدوقيات اللومباردية . على أن المناطق المحيطة بالبندقية وراڤنا ونابولى وروما فضلا عن جنوب كالابريا ظلت تابعة لبيزنطة ، كما أن الحكومة الإمبراطورية (الأرجوانية) فى راڤنا لم تزل من الوجود

إلا بعد قرنين من الزمان[١] . ومما يدل على ازدياد أهمية هذه المدينة ما حفلت به من كنائس رائعة يعود تاريخها إلى تلك المدة . على حين أن نتائج الأحداث التى استمرت نصف قرن ، والتى حولت روما ، أعظم مدن الغرب مجداً إلى مدينة إقليمية مضمحلة متداعية ، وإلى تابع ذليل لمنافستها الشرقية بيزنطة ، تتجلى بقوة فى التباين الشديد بين ما فى الفسيفساء فى حنيات كنيستى القديسين كوزماس ودواميان (حوالى ٥٣٠ م .) من رسوم بالغة الروعة وشديدة الأثر ، وهى تعتبر الصورة النهائية للفن الرومانى فى قرون عديدة ، وبين مافى فسيفساء القديس لورنزو فيورى لومور (حوالى ٥٨٠) من مناظر مستوية مجردة من الحياة . والراجح أنها من إنتاج صناع بيزنطيين يقلون رتبة ومهارة . أما البابوية نفسها فإنها فقدت كل استقلال . فقد عوجل أحد الأحبار بالعزل ؛ وحمل آخر إلى القسطنطينية قسراً ليلقى الإهانة والسجن[٢] . ذلك أن خلفاء جستنيان واصلوا العمل بخطة « السيادة الدينية للقيصر Caesaropapism » التى رسمها ذلك العاهل ، حتى إن البابا جريجورى الكبير ألفى نفسه مضطراً إلى المبالغة فى مداهنة الطاغية فوقاس . ومع ذلك فإن سلطة الكنيسة كانت فى ازدياد مطرد ؛ إذ تزايد ما كان يمارسه أساقفتها من سلطة دينية ؛ وتوافرت الأموال والضياع المحبوسة عليها . وكان للكنيسة نظام دائم ، فكان بوسعها أن تنتظر حتى يكتمل إعداد الوسائل اللازمة لبسط النفوذ البابوى فى أوربا الغربية ، وهو العمل الذى تم على يد البابا جريجورى .

---

(١) قيل « إن ممتلكات الإمبراطورية واللومبارد بإيطاليا بلغ من تداخلها أنه لم يعد فى الإمكان قيام وحدة قومية » . ومن هنا كان الفتح البيزنطى مسئولا إلى حد ما عن ضعف الشعور القومى ، الذى كان له أثر كبير فيما تلى ذلك من تاريخ إيطاليا .

(٢) انظر ص ١٩٩ ، بعنوان مذهب الطبيعة الواحدة .

الفصل السادس

جستنيان والشرق

الإصلاحات الإدارية

من المعلوم أن جستنيان اتبع فى الغرب سياسة هجومية ؛ بينما حرص على أن تكون أهدافه دفاعية فى الشرق . وكان يرى ضرورة صيانة الاستقرار على الحدود بإنشاء مجموعات هائلة من الأسوار والقلاع ؛ فإن أعيته الحيل مع البرابرة وجب شراء رحيلهم بالمال . أما الاستقرار فى داخل الإمبراطورية فكان فى رأيه لا يتحقق إلا بالإصلاح الإدارى . فإن هذا الإجراء فضلا عن تقليله من فرص الفوضى ، لا بد أن يحقق لجستنيان موارد مالية بالغة الأهمية ، بازدياد رضاء السكان وتحسين الجهاز المالى . والواقع أن جستنيان لم يقصد التضحية برفاهية رعاياه فى سبيل سد حاجياته المالية . وتقوم فلسفته على ما يلتزمه الإمبراطور (الحاكم) والشعب نحو الإمبراطورية من واجبات متعادلة ، بوصفهما الركنين اللذين تتألف منهما الإمبراطورية ، فالإمبراطور يتولى الغزو والفتح ، بينما يلتزم السكان مساندته فى ذلك .

وقد بدأ جستنيان إصلاحاته بإصدار مرسومين عظيمين فى (٥٣٥ م) . فصدرت تعليمات تفصيلية عن تنظيمات كل ولاية بمفردها ؛ والمقام لا يتسع هنا لغير المبادئ الأساسية . ومن أبرز المساوى فى عهده رسوم التوظف (Suffragia) التى كان على الموظفين أن يدفعوها لكى يحصلوا على وظائفهم والتى هى فى الواقع رسوم للوظيفة أو ثمن مدفوع . وكانت نتيجة ذلك

اضطرارهم إلى تعويض أنفسهم عما دفعوه بابتزاز الأموال وقلة الأمانة بجميع أنواعها . وكان كل الجهاز الإدارى ، ابتداءً من الوزراء الكبار بالعاصمة إلى أصغر شرطى وجندى بالأقاليم، طافحاً بالرشوة والفساد . فهرع إلى القسطنطينية حشود من أصحاب المظالم . ولم يكن الموظفون المركزيون يستطيعون الحصول على أية معلومات صادقة عن الحكومة المحلية بالأقاليم ، فإذا جرت محاسبة الموظفين على تصرفاتهم التمسوا العذر فيما يتطلبه تأدية رسوم الوظائف من مقتضيات . والآن أبطل الإمبراطور هذه الحجة ؛ فلم يعد الموظف يؤدى عند الالتحاق بالوظيفة إلا رسوماً خفيفة . وصدرت أوامر صارمة لتطهير النظام الإدارى . وصار لزاماً على الولاة أن يكونوا ذوى « أيد طاهرة » — وهذه العبارة تردد ورودها كثيراً كأنما هى لزمة ثابتة (Leit - Motif) فى كل ما صدر من مراسيم . وتحتم عليهم توفير العدالة المتكافئة للناس جميعا ، وحماية رعاياهم من عنف العسكريين أو مما يبتزه صغار الموظفين من الأموال ؛ وحفظ التوازن بين الغنى والفقير ، والتزام العدالة فى احترام حقوق الكنيسة والدولة بدرجة متساوية . غير أن واجبهم الأول هو « أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزانة ، وأن يبذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مصالحها » . وكانت الأوامر تعزز بيمين رهيبة ، كان على كل حاكم جديد أن يقسمها ؛ فإن أخفق فى أداء واجبه ، تعرض « لشدائد يوم الحساب الرهيب ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيجزى والفالج الذى أصاب قابيل » . وأدخلت تبسيطات هامة فى الجهاز الإدارى ببعض أجزاء الإمبراطورية . وضمت الأقاليم حتى جعلت وحدات أكبر واختفت الأقسام الإدارية (Dioceses) . وكانت السلطات العسكرية والمدنية توحد فى بعض الحالات—وهو تغيير يعد إرهاصاً بالألوية (الثيمات Themes) التى ظهرت فى التاريخ البيزنطى . وتقرر أيضاً

تبسيط الإجراءات القانونية ؛ فتيسر تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم ، غير أن التقدم بالشكوى رأساً إلى القسطنطينية أحيط ببعض الصعوبات . وقد كفلت هذه الإجراءات تحقيق السرعة فى القضاء المحلى ، على حين منعت اشتداد الضغط على محاكم العاصمة .

وكان چستنيان يرجو بهذه « الأفكار الفاخرة » أن يكون هيأ للدولة « عصراً جديداً زاهراً » . غير أن أحداث السنوات التسع والعشرين التالية أثبتت خطأ ظنونه . وأكبر شاهد على ذلك معاودة تجديد المراسيم سنة بعد أخرى طوال تلك المدة وتكرار ما بها من التهديدات والاتهامات بلا نهاية . لقد كان الوضع ميئوساً منه جملة وتفصيلا . ويعود السبب فى ذلك إلى النظام نفسه من ناحية ، وإلى السياسة الإمبراطورية من ناحية أخرى . فإن جهاز الحكومة الهائل المعقد ، الذى تغلغل فيه الفساد قروناً عديدة ، كان بمثابة مقاومة شديدة لكل إصلاح ، كما أن ازدياد حاجة چستنيان المستمرة إلى المال ، كان من القوة بحيث يمنع كل إصلاح .

وتفيض كتابات المعاصرين بذكر ألوان الشقاء التى كان يقاسيها رعايا چستنيان التعساء . فإن لكل ولاية قصصها التى ترويها عما حل بها من مظالم ، وعن الظالمين المعروفين بالسمعة السيئة . وكانت تدور فى الأسواق حول هؤلاء الرجال مجموعات لا آخر لها من الحكايات والقصص . فمنها أن يوحنا « المنتفخ الأوداج » حاكم آسيا أهان الأسقف ، وما زال برجل شيخ حتى دفعه إلى الانتحار واغتصب أبناء الأعيان . واشتهر يوحنا « المقص » بإيطاليا بمهارته فى قرض العملة . وفى العاصمة نفسها استحدث يوحنا القبادوقى ، حينما كان رئيسا للإدارة المالية ، غرفة للتعذيب فى سراديب

مقره الرسمى يزج فيها كل ممتنع عن دفع الضرائب ، على حين أن تريبونيان، وهو وزير العدل ، كان يتجر علناً فى أحكام المحاكم . وكلما زادت الحاجة تقرر فرض ضرائب جديدة ؛ وأضيفت الاحتكارات والتعريفات الجمركية إلى الأعباء التقليدية المتمثلة فى ضريبة الأرض ، فضلا عن الضرائب المتعلقة بنقل الجنود وإمدادهم بالطعام[١] . على أن مدن آسيا الصغرى التى استقرت أحوالها ، وازدهرت تجارتها فى أثناء القرن الماضى ، فهيأت للإمبراطورية فى الشرق أن تتجنب الإفلاس الذى اجتاح الغرب ، — أخذت تحس الآن بالوطأة التامة لمطالب جستنيان : — ذلك بأن بلاد البلقان تعرضت للخراب والنهب على أيدى الصقالبة والهون ، وألحقت غارات الفرس الخراب بسوريا ؛ فلم يعد بوسع الحكومة أن تبتز مزيداً من الخراج من هذين الإقليمين . وعلى الرغم من كل شىء لم تكن الموارد كافية : حتى لقد انتهى الأمر بذلك الحكم الطويل إلى إهمال القلاع وتأخير أعطيات الجند ، وإلى تخفيض حاميات الثغور* ؛ ثم تم إغلاق حلقة الفساد المفرغة على عنق الدولة ، حينما التزمت الإمبراطورية ، وقد تجردت من كل وسائل دفاعها أن تؤدى لجيرانها البرابرة من الجزيات والإعانات المالية ما زاد فى خراب اقتصادياتها الزائفة .

قوانين جستنيان

على أن ما اشتهر به جستنيان من الميل إلى النظام والاتساق ، وجد فى مجال التشريع منفذاً صالحاً . وكان الواجب المطروح بين يديه ضخماً هائلا ، كما أن العمل الرائع المنجز كان جليلا حقاً مع وضع مالقيه من الصعوبات

---

(١) انظر ص ٢٦ بعنوان دقلديانوس وقسطنطين .

* الثغور : كما ورد فى المعاجم: هى المواضع التى يخاف العدو منها ، أى هى مناطق الحدود. [المترجم]

موضع الاعتبار . وكان القانون الرومانى يتكون من مجموعتين تعرفان عادة باسم القانون القديم (Ius vetus) والقانون الجديد (Ius novum) . وكان القانون القديم يتألف أساساً من قوانين ولوائح الجمهورية والإمبراطورية الأولى، ومن مراسيم السناتو فى أثناء الفترة نفسها ، ومن شروح الفقهاء المعاصرين . واجتمع من كل ذلك خليط هائل : وكان بعضها بعيد المنال لا سبيل إلى الوصول إليه ، وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ، ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض وصار من اليسير الاستناد إلى رأى فقيه آخر ، ومن هنا لم يعد القاضى ولا المحامى يشعر بالاطمئنان إلى أن رأيا غريباً قد لا يظهر أمامه فى المحكمة فيقلب حججه رأساً على عقب . أما القانون الجديد فاحتوى على أوامر الأباطرة فى الأزمنة التالية . وهنا أيضاً يفتقر الأمر إلى الصدق واليقين، فربما صح أن يبطل مرسوم مرسوماً آخر ، إذا لم تجتمع حتى وقتذاك مجموعة كاملة من المراسيم . غير أن هذه المشكلة أكثر يسرا من المسائل الأخرى . ففى السنة التالية لتولى جستنيان العرش (٥٢٨) ، بدأ عمله العظيم بتعيين لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء لمراجعة القانون الجديد (Ius novum) ، وإزالة ما فيه من متناقضات وزيادات ، وجمع أثمن ما تبقى فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب — وكان هذا هو المعروف « بمجموعة جستنيان القانونية » (Codex Iustinianus) الشهيرة ، وكان نجاح اللجنة مشجعاً للإمبراطور على المضى إلى القانون القديم (Ius vetus) . فتألفت لجنة جديدة فى (٥٢٠) لمعالجة ما يدخل فى دائرة عملها من قدر هائل من الدراسات القانونية ، التى تتألف مما لا يقل عن ألفى بحث . وكان على اللجنة أن تختار من بين كتابات جميع الفقهاء المعترف بقدرهم نصاً واحدا للقانون عن كل نقطة ؛ وكان عليها أن تغير عبارات المؤلف كلما تطلب الوضوح ذلك أو دعت إليه مقتضيات

الزمان . ومن نتائج هذه العملية ظهور الخمسين كتابا التى تحوى ما يسمى الموجز القانونى (Digest or Pandects) ، وهو أهم كتب القانون التى شهدها العالم ، لا فى حد ذاته فقط بل فى الأثر الذى خلفه فى جميع التشريعات التالية . على أنه معرض للنقد من وجوه عدة . ذلك أن العمل تم فى سرعة ، ولم يكن الترتيب والتنظيم مثالياً . وهو ليس فى الواقع تقنيناً أى إخضاعاً للقوانين السابقة لقاعدة منتظمة . وإنما هو أقرب إلى بعض مبانى ذلك العصر ، التى كانوا يعمدون فيها إلى ما اشتهر به عصر متقدم من الرسوم الدقيقة الغائرة أو البارزة ، فيزجون بها بين الأحجار الخشنة ومبانى القرميد التى غلب عليها طابع العجلة ، لكى تكون أحجارا عادية بحتة فى مبنى قبيح . ولا شك أن أجمل ما عبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه فى فن التشريع . فما اتسمت به صيغها القانونية من الرشاقة ، وما اتشحت به حلولها من الروعة والجمال ، أشياء لاسبيل إلى مباراتها . ولكن علماء القانون فى القرن السادس لم يكتفوا بتلخيص ما أورده أسلافهم المشهورون ، بل أغفلوا كل ما استعصى عليهم فهمه من تفسيرات حاذقة ، وتعرضت العبارات الجوهرية للحذف والتشويه ودخل فى النظام الرومانى أفكار هللينستية وشرقية .

وربما لم يكن هناك مفر من وجود هذه المعايب . إذ لا سبيل إلى أن يتحقق فى زمن چستنيان وأحوال عهده ، ما يفوق القوانين التى صدرت . على أنها بحالتها الراهنة ، إنما هى تعبير كامل عن الحقبة . وهى فى إصرارها على استخدام اللغة اللاتينة والإفادة من التراث اللاتينى وفيما تضمنته من مبادئ عن الحكم الاستبدادى للإمبراطور ، إنما تنظر إلى ما خلفه القياصرة

من قبل من سجل حافل . وهى بما يتجلى فيها من زيادة السمات الإنسانية ، ومن اعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية (Patriapotestas) ، إنما تسجل الشوط الطويل من التقدم الذى قطعه التفكير القديم وظهر تأثير الكنيسة واضحاً فى ازدياد صرامة القوانين المتعلقة بالطلاق والاعتداءات الجنسية .

ولكى يتم چستنيان عمله التشريعى أصدر « الشرائع Institutes » ، وهو كتاب تعليمى ابتدائى وضع ليستخدمه الطلبة . وتقرر أيضاً إعادة تنظيم دراسة القانون ، فصدرت لوائح تنظيمية تفصيلية للجامعات الكبرى الثلاث فى روما والقسطنطينية وبيروت . فلم يترك الإمبراطور شيئاً تتحكم فيه الصدفة أو يلم به التغير . وحذرت السلطات الأفراد من إصدار شروح جديدة للقوانين ؛ وحتمت أن تكون جميع الترجمات حرفية . ولم يعد التشريع مباحاً إلا للإمبراطور نفسه . ومن سخريات الدهر العجيبة ، أنه على الرغم من الإصرار على أن تكون اللاتينية هى اللغة ، فإن معظم هذه القوانين الأخيرة صدرت باليونانية ، حتى « يحسن الأهالى فهمها » ، على حين أن العقوبات مهما اشتدت ، لم تستطع الحيلولة دون ظهور فيض من الشروح والتفسيرات اليونانية للموجز القانونى (Pandects) والدساتير التى لا سبيل الى تبديلها .

وفى الغرب ، لم يكد الناس يحسون بالأثر المباشر لمجموعة قوانين چستنيان . إذ لم يكن القانون الرومانى معروفاً إلا عن طريق القانون الذى أصدره قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة ألاريك ملك القوط الغربيين ، ولم يكن إلا مصنفاً عملياً وضع ليستخدمه رعاياه فى غالة وأسپانيا، وفيه وفق المشرع بمهارة بين المفاهيم القانونية الرومانية البسيطة وبين ظروف الزمان والعرف القبلى

لدى القوط . ولم يشرع الناس فى دراسة مجموعة قوانين چستنيان دراسة منتظمة فى بروڤانس ولومباردى وراڤنا وبولونيا إلا فى أثناء القرن الحادى عشر. على أن القانون الرومانى لم يقتصر تأثيره فحسب على المناطق التى يغلب على سكانها الطابع الرومانى ، بل امتد أيضاً إلى ما استلزمه نمو التجارة ودعاوى الكنيسة وانتعاش الفكر القانونى من فروق بالغة الدقة ، ومن أنماط منطقية أكثر . وقد أصبح القانون فى الأزمنة التالية سلاحا قوياً فى يد كل أمير طموح أو أسقف جشع ، يحاول الاعتداء على قيود الإقطاع باتخاذه لنفسه ما كان لإمبراطور كچستنيان من الامتيازات الاستبدادية .

الوثنيون والهراطقة

ولعل الاستبداد الذى عنه نتحدث قد تجلى فى أعظم صورة فى فلك الكنيسة ، حيث أدى إلى ما يسمى أحياناً باسم « الاستبداد الروحى الدنيوى » . ولم يقنع چستنيان بتنظيم الكنيسة بما أصدره من تشريعات مفصلة؛ إذ كان يعمد فى المنازعات المذهبية إلى أن يستخدم إلى أقصى حد حقوقه كإمبراطور فى عقد المجامع الدينية وتعيين الحدود العقائدية وكان وزراء الإمبراطور يرأسون الجلسات ، وكان الرسل ينطلقون من القصر وإليه ، وإذا كان بالقرار شىء من الشك ، لجأ الإمبراطور فى بعض الأحوال إلى التدخل بشخصه . ومع أن الكنيسة والدولة كانتا منفصلتين من الناحية الرسمية[1] ، فالواقع أنهما كانتا شيئاً واحداً ، هذا إلى أن الاعتبارات السياسية كانت الرائد الأساسى لچستنيان على طول الطريق الذى قادته فيه من قبل مصالحه

---

(١) القانون الجديد . ٦ ، Praef (عام ٥٣٥ للميلاد) .

اللاهوتية . وكانت « وحـدة الإمبراطورية » فى المقام الأول بين هذه الاعتبارات ؛ ولا تتحقق الوحدة إلابوسيلتين : القوة والمصالحة . ولو تأملت المعاملة التى كان يلقاها الهراطقة لوجدتها تجمع بين الطريقتين ، وتعتبر فى الوقت ذاته مثالا للوسيلة التى اختلطت بها الأمور السياسية والاعتقادية فى السياسة الإمبراطورية . فالمعروف من الناحية النظرية أن المتهرطق إنسان فقد كل ماله من حقوق ، العامة منها والخاصة . قال الإمبراطور : « من العدل أن نحرم من متاع الدنيا كل من لا يعبد الإله الحق » . ولـكن الواقع المعمول به ، هو أنه كان هناك كثير من الفروق والدرجات . فمن اليسير سحق كل الهرطقات التى ليس لها أهمية سياسية . فـكان الموت هو العقوبة الوحيـدة للمانويين ؛ وكانت العادة فى شأنهم أن يحرقوا أحياء . أما الوثنية وهى ، فى جل شأنها ، بقايا ضئيلة لخرافات متناثرة ، فـكانت تؤخذ بالشدة . على أن المعتقدات القديمة كانت لا تزال متوطنة فى الأودية المنعزلة والمدن المنقطعة على التلال ؛ ففى بعلبك مثلا كانت مناسك عتيقة سحيقة القدم لا تزال تقام بمعبدها ، كما أن أمون المشترى كان لا يزال يدلى بنبوءاته فى الصحراء الليبية ، على الرغم من تراجعه إلى واحة صعبة المرام ، حيث كان يعبد فيها مع الإسكندر الذى أضحى آنذاك إلهاً . وقد حول هذا المزار المقدس إلى كنيسة القديسة مريم ، وتحول أيضاً معبد إيزيس بجزيرة فيلة إلى كنيسة مسيحية . ولم يبرح للوثنية أنصار بين الطبقة المتعلمة ، ولذا تعرضوا للقوانين الصارمة . فلم يعد يجوز لهم الميراث ، أو إبرام العقود ؛ وحرم عليهم تولى أى منصب ، إلا ما يعد توليه عقوبة فى حد ذاته مثل عضوية مجالس المدن (Curia) . وأسفرت التحريات بالقسطنطينية عن كثرة الوثنيين بين ذوى المـكانة ، كالأطباء وأساتذة الجامعات ، فتعرض كثير منهم للجلد والسجن .

وفى فلسطين كان اليهود قد فقدوا مركز عصيانهم . وخضعوا رغم احتجاجهم للمراسيم التى أصدرها الإمبراطور بتنظيم متون كتبهم المقدسة ؛ على أن السامريين — وقد أثارتهم الضرائب الباهظة ، وفدحتهم اضطهادات المسيحيين لهم — عمدوا إلى إشعال الفتنة فوق رءوس تلالهم ، فاتخذت حيالهم من الإجراءات التأديبية القاسية ما كاد يفنيهم . وفى الغرب ، كانت الاعتبارات السياسية أبرز من هذا قليلا . إذ تقرر حرمان الدوناتيين بإفريقية من ممتلكاتهم وكنائسهم ؛ فكانوا من ثم صفاً واحداً متحالفاً مع القوى المناهضة للإمبراطور . وكان رجال الكنيسة الأريوسية منظمين تنظيما قوياً ، وكان چستنيان ميالا إلى الإبقاء عليهم على شريطة أن يعتنقوا العقيدة السليمة المقررة ، ولكن كراهية الكاثوليك لهم كانت حادة لا تلين بعد الذى لاقوه منهم من شديد العناء ، خاصة وأن البابا كان يؤيد هؤلاء الكاثوليك . ولقد استجاب چستنيان لمطالبتهم بالانتقام من الأريوسيين . وفى إيطاليا ساعدت عوامل أخرى على الاستيلاء على كنائس الأريوسية . واتخذت ميولهم نحو القوط ذريعة يتعلل بها أعداؤهم ، كما كانت ثرواتهم الضخمة حافزا لحسام الناهبين .

مذهب الطبيعة الواحدة

وكان لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysites) وضع مختلف تماماً . فإنهم كانوا يسمون حتى (٥٤١) باسم « المترددين » ، وكان چستنيان يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخواناً خاطئين . ثم واقاهم بعد ذلك بإجراءات بالغة الشدة ، غير أنه كان دائما يلوح لهم بالوفاق . وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية . فمن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى ، اللتين تعتبران العمود الفقرى

لميزانية الإمبراطورية . ومن جهة أخرى استقرت المعارضة الكاثوليكية بالقسطنطينية ، ويتزعم الجميع البابا — تؤيده الغالبية العظمى من أساقفة الغرب . على أن الاحتفاظ بولاء الشرق وتبعيته ، بعد أن تهددته فعلا المصالح المتضاربة والعداوات القومية ، دون ضياع تأييد الغرب الذى تم فتحه حديثاً ، كان يعتبر عملا عسيراً ، ربما كان لا رجاء فيه . ومهما تكن الحال ، فإن سياسة چستنيان المعقدة لم تكن غير جديرة بإمبراطور عظيم . ولقى چستنيان فى هذه السياسة مساندة صادقة من ثيودورا المعروفة بميولها نحو مذهب وحدة الطبيعة . وأظهرت السنوات الأولى من حكمه أنه كان على استعداد للتراجع عن الموقف الكاثوليكى المتطرف الذى اتخذه چستين . وتوقف اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة (Monophysites) فى (٥٢٩) وأعيد المنفيون . وفى (٥٣٢) انعقد مؤتمر فى بيزنطية . غير أنه أخفق فى التوفيق بين الفئتين ؛ ولكن چستنيان لم يفقد الأمل ، وإن شعر أن الحكمة تقضى بإصدار مرسوم يعلن تمسكه بالعقيدة الرسمية السليمة رغبة منه فى طمأنة البابا . وفى (٥٣٥) كان نجم أصحاب الطبيعة الواحدة فى صعود . وتعين أحدهم وهو أنثيميوس أسقفاً للقسطنطينية ، فبادر إلى الاتصال ببطريركى الإسكندرية وبيت المقدس . وفى تلك الأثناء كان يوحنا من تلاس (Tellas) ، وهو مبشر شديد الحماسة ينشر مبادئ وحدة الطبيعة فى أثناء طوافه بآسيا الصغرى . وهرع رهبان وحدة الطبيعة إلى العاصمة ، وأقبل الناس على تعميد أطفالهم فى كنائس وحدة الطبيعة ، وفى تكريم قسوس مذهب وحدة الطبيعة الذين يحلون بهم ضيوفاً . على أن السنة التالية شهدت تغييرا كبيرا . ذلك أن البابا أجابيتوس وصل إلى بيزنطة فى سفارة من قبل القوط الشرقيين . فلم يلبث حتى أصدر قرار الحرم على أنثيميوس ، وتمكن بمناصرة الحزب الكاثوليكى من عقد مجمع دينى تقرر

فيه خلع أنثيميوس وبعض الأساقفة ، ثم حمل چستنيان بعد ذلك على التصديق على القرار . ومن ثم بدأ الاضطهاد للمرة الثانية . وطورد رهبان وحدة الطبيعة فى سورية وأرمينية وأرض الجزيرة وحرموا من الطعام وضربوا بالسياط وأحرقوا أحياء فى الأسواق . وقبض أفرايم أسقف أنطاكية على يوحنا التلاسى وأمر بإعدامه بالتعذيب البطىء . ثم مات البابا بعد ذلك بقليل ، ولكن قاصده الرسولى القدير پيلاجيوس كان يحظى بنفوذ ضخم فى البلاط البيزنطى . وحتى مصر نفسها فرض فيها الخضوع مؤقتاً لقرارات خلقدونية على الأهالى الذين مس الوجل قلوبهم .

وعندئذ قامت ثيودورا بحركة انتقامية درامية . إذ إن روما التى احتلها وقتئذ بليساريوس ، أجبرت على قبول تعيين الشماس اللين العريكة ڤيچيليوس مرشح ثيودورا بابا جديداً عليها . وانتعشت من جديد آمال چستنيان فى وحدة الشرق والغرب . واسترد حزب الطبيعة الواحدة فى بيزنطة مركزه . وقام يعقوب بارادائيوس الراهب المونوفيزيتى الدءوب ، وهو الذى تنتمى إليه الكنيسة اليعقوبية — بالدعوة التبشيرية التى سبق أن قام بها يوحنا التلاسى بآسيا الصغرى ، وفاق سلفه فيما ظفر به من نجاح . ومنذ تلك اللحظة حالف الحظ أتباع الطبيعة الواحدة وازداد نفوذهم حتى وفاة ثيودورا فى (٥٤٨) . وبلغ الكفاح ذروته فى المسألة الشهيرة المسماة « بالفصول الثلاثة » التى دامت من (٥٤٣ — ٥٥٤)[1] . وبغض النظر عن المؤامرات التى ارتبطت بها هذه المسألة ، فإنها تعد مرحلة جديدة فى سلسلة الجهود الطويلة المبذولة للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتى ابتدأت برسالة الاتحاد لزينون وانتهت بالحل الذى

---

(١) أنظر التذييل ب فى آخر الكتاب .

اقترحه هرقل وهو نظرية « تجدد الروح القدس Monergism » . ولم تلبث الأقاليم المونوفيزتية أى المؤمنة بوحدة الطبيعة أن انتقلت بعد ذلك إلى سيطرة المسلمين ، وبذلك لم يعد ثمة ما يدعو إلى مناهضة النزعات الانفصالية فى سوريا ومصر . ولا شك أن ما اتبعه الإمبراطور من وسائل لتحقيق سياسة اتحاد الدولة سياسياً ودينياً ، والتى لابد لكل إمبراطور أن ينتهجها ، يعد شيئاً جديرا بالاهتمام . واستهل جستنيان النزاع بقرار أصدره فى (٥٤٣) بإبطال « الفصول الثلاثة » . وكان يرجو موافقة البابا على تصرفه ، غير أن البابا ڤيجيليوس وقد استقر فى الكرسى الرسولى ، لم يكن ليقبل المذلة . فكان لابد من اختطافه وحمله إلى بيزنطة وتعريضه لأنواع مختلفة من التهديدات والإهانات حتى رضى فى (٥٤٨) بإنكار « الفصول الثلاثة » . وكان إصداره حكمه (Judicatum) على هذا النحو سبباً فى إثارة عاصفة من الاحتجاج بين أساقفة إفريقية وداليماتيا وإلليريا ، وفى (٥٥٠) أذن له جستنيان بسحب « حكمه » على أمل النجاح فى هذا السبيل بوسائل أقل عنفا . فلما أن حبط رجاؤه ولم يتحقق منه شىء عاد فلجأ إلى القهر فعذب الإفريقيين وأساء معاملة ڤيجيليوس الذى لم يكن فى الحقيقة إلا سجيناً فى بيزنطة ، وكان ذلك عاراً وفضيحة عند المؤمنين . واشتدت العلة بالبابا ڤيجيليوس فلم يلبث فى (٥٥٤) أن أذعن ، فأعلن آخر الأمر بطلان « الفصول الثلاثة » . وعندئذ حاول جستنيان أن يفرض إرادته على الأسقفيات الغربية ، ولكن إيطاليا أظهرت العناد . وخلف ڤيجيليوس على الكرسى البابوى پيلاجيوس ، القاصد الرسولى ببيزنطة ، الذى كان تزحزح قليلا عن موقفه الكاثوليكى ليهدئ من ثائرة جستنيان.

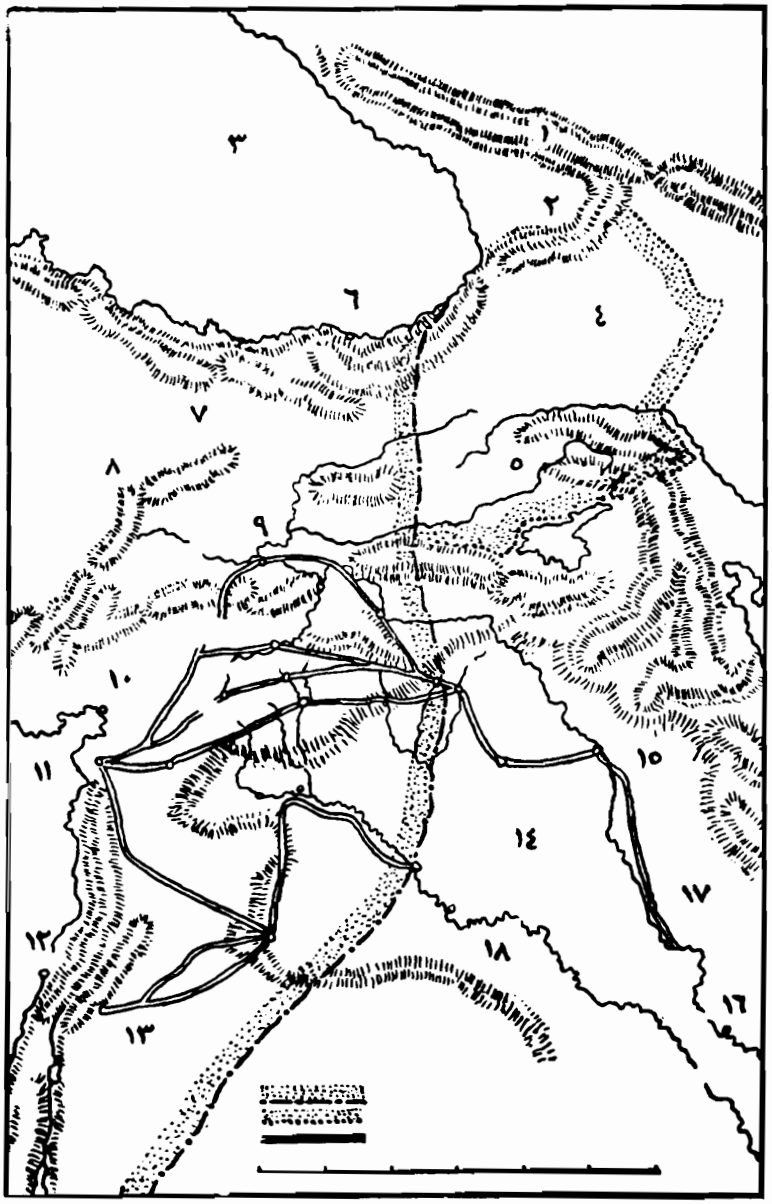

(٨) خريطة الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية

١ ــ جبال القوقاز ٢ ــ لازيكا (كولخيس) ٣ ــ البحر الأسود
٤ ــ أيبريا ٥ ــ أرمينيا ٦ ــ طرابزون
٧ ــ بنطش الكبادوكية ٨ ــ أرمينيا الصغرى ٩ ــ كوماجين
١٠ ــ كيليكيا ١١ ــ أنطاكية ١٢ ــ بيروت
١٣ ــ دمشق ١٤ ــ أرض الجزيرة ١٥ ــ الموصل
١٦ ــ اكتيسفون (طيشفون) المدائن ١٧ ــ دورا ١٨ ــ الفرات

على أن أساقفة شمال إيطاليا ، وقد امتلأت قلوبهم بالغيرة والحمية لما صدر من الكرسى الرسولى بروما من اعتداءات ، اغتنموا الفرصة ، فقطعوا ما يربطهم به من علاقات ، ودام هذا الانشقاق الصغير حتى نهاية القرن السابع .

وجملة القول أن چستنيان قد أخفق . فظل الشرق منشقاً عليه ، أما الغرب ، فإنه على الرغم من خضوعه ظل غاضبا متذمراً . وأخذت الهمسات المنذرة بالثبور تعلو وترتفع فى الآذان . وصرح فاكوندوس بإفريقية قائلا : « إن المسيح وحده هو الملك والقسيس . أما الإمبراطور فينبغى له أن ينفذ قانونات (Canons) الكنيسة وليس من شأنه أن يتبتها ولا أن يتعداها » . ومع ذلك فإن ما اتخذه چستنيان من مثل أعلى للوحدة كان عظيما ؛ وينبغى ألا يغرب عن بالنا عند تقدير سياسته نحو الكنيسة ما يعتبر فيما يبدو أروع مظهر لها ، وهو البعثات التبشيرية فى الخارج ، التى حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوربا إلى الشرق الأقصى ، وأقامت التقاليد التى استمرت طوال العصور الوسطى ، ووهبت صقالبة روسيا ودول البلقان من تراث الفن والعلوم ما يضارع فى أهميته ما أسدته روما للأمم الغربية من العلوم والفنون .

البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية

ومن آثار سياسة چستنيان وتدبيره ، الإفادة من التجارة والتبشير والديبلوماسية مجتمعة . وأكثر ما يظهر ذلك فى بلاد الغرب حيث تصادف قيام أوجه شبه عجيبة بين السياسة البيزنطية وبين السياسة التى تنتهجها الدول العظمى فى الشرق الأدنى فى العصور الحديثة . إذ امتد من دمشق إلى خليج

العقبة خط طويل من الأسقفيات ، كانت فيها بصرى والبتراء حاضرتين لمطرانيتين . ثم تجىء بعد ذلك الصحارى وساحل البحر الأحمر وبلاد الحجاز، وإلى الجنوب من ذلك بلاد حمير ، وكانت تقيم بها جاليات يهودية كثيرة ، وقد تخلى معظم الحميريين عن عباداتهم البدائية واعتنقوا العقيدة اليهودية . ورسخت قدم المسيحية فى الخليج الفارسى بعد أن انتشرت من فارس التى ازدهرت بها أسقفيات عديدة ، بل لقد تغلغلت إلى اليمن وإلى نجد داخل الجزيرة العربية . وتصادمت المصالح الفارسية والبيزنطية فى هذه المناطق بعضها ببعض ، وذلك لاهتمام كل منهما بالتجارة الساحلية والهندية . وحدث قبل انتهاء القرن الخامس بفترة طويلة ، أن بيزنطة عززت جهودها الديبلوماسية . وشجعت حاكم أكسوم (الحبشة) على المطالبة بمملكة حمير ذاتها . ثم اعتنق المسيحية ، ويرجع إلى هذا التاريخ قيام الكنيسة الحبشية التى لا تزال باقية إلى اليوم . وبفضل مساعدة بيزنطة ، امتد سلطان أكسوم على حمير سنوات عديدة ، على أن هذه البلاد كانت من البعد عن بيزنطة ما يجعل مساندتها لها ضئيلة الأثر. وفى قريب من (٥٧٠) سئمت فارس من مؤامرات بيزنطة فاستولت على تلك المنطقة (بلاد حمير) ، وظل يحكمها حتى ظهور الإسلام مندوب فارسى . ولعب المبشرون المسيحيون بصعيد مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية . ذلك أن بعثة مونوفيزيتية حملت النوباد وهم قبيلة بدوية شرسة على اعتناق المسيحية حوالى سنة (٥٤٠) ، ثم استخدموا لكبح جماح جيرانهم البليميين الذين هم أشد شماسا ، حتى طردوا إلى الصحراء ، فحل محلهم النوباديون على الحدود . ويبدو أن لونجينوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اجتاز تلك المناطق حوالى عام (٥٧٨) فى أثناء رحلاته التبشيرية وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا. وغنى عن البيان ، أن الإحساس بالفوارق الطائفية لا يكون بالغ الشدة فى معاقل الإمبراطورية الأمامية ، وعرف جستنيان كيف يختار خير الرجال ، وكان

يبذل لأنصار مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيين) الذين يعملون فى مجال التبشير من التأييد ما لعله كان يتردد فى منحه لهم لو كانوا أقرب إلى ديارة .

لقد كان الراهب جزءاً أساسيا فى ديبلوماسيته . فكم فى بلاط بربرى أضفى فيه القسوس البيزنطيون مستشارين موثوقا بهم لدى الملك ، ومسيطرين على النساء الحريصات بفطرتهن على اعتناق دين ينطوى على الأسرار ، على حين أنه جاء فى أعقاب المسيحية ثقافة جديدة ودنيا جديدة من الأفكار . ولم تكن الديبلوماسية تعوزها أيضا الوسائل المادية. فإن شيوخ البربر كانوا يفخرون بارتداء البرنس زيا للاحتفالات الرسمية وبالتيجان والقلادات والأوسمة وأحذية الأرجوان التى ينعم عليهم بها جزاء ولائهم . ولأسباب من هذا القبيل ، تقرر تعيين ملك لازيقا ببلاد القوقاز ، قائدا بالحرس الإمبراطورى . وأنعم على حكام آخرين بزوجات من العائلات البيزنطية النبيلة وكثيرا ما كان أبناؤهم يرسلون لتلقى تعليمهم فى البلاط الإمبراطورى. ثم إن الوسائل الرومانية التقليدية لم تغب عن بال القوم . فإن المنفيين السلبيين والأفراد المتنافسين والمطالبين بالعروش والمغامرين كانوا يشجعون على زيارة العاصمة ، ويزودون الدولة بحجة حاضرة تتذرع بها بيزنطة للتدخل فى الشئون الداخلية لبلادهم . وكانت الأراضى والإعانات المالية تمنح بسخاء وسرف ، ودأبت بيزنطة على أن تمارس السياسة المجربة التى تقضى باتخاذ لص للقبض على لص[1] ، فكانت الدولة تؤلب شيوخ المغاربة بعضهم على بعض . وكانت تناصر الفرنجة على القوط ، وكانت تستعين باللومبارد لكبح جماح الجيبيد ، وبالهون لمناهضة البلغار ، وبالآفار للتغلب على الهون .

---

(١) انظر ص ٩٠ ، ٩٨ ، ١١١ .

الحدود الشرقية

على أن الدفاع عن الحدود الشرقية الطويلة هيأ الفرصة لاستخدام هذه الوسائل جميعا . ومن خلف تلك الحدود كانت تقع الإمبراطورية الفارسية العظيمة ، وهى الدولة الوحيدة التى كانت بيزنطة تعاملها معاملة الند . وقد أثمرت الخصومة الطويلة الممتدة أجيالا بين الدولتين تفاهما متبادلا ، بل لقد أدت إلى نشوء اقتراحات بإقامة ضرب من « السياسة العالمية المشتركة Weltpolitik ». وقد صرح سفير فارس فى إحدى المناسبات بأن « الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية كانتا أشبه بمنارتين تهديان العالم . ومن ثم فقد وجب عليهما أن يتآزرا بدل أن يتهاجما » . وكتب كسرى إلى الإمبراطور موريقيوس يقول : « هما للعالم بمثابة العينين للإنسان » . ويتضح للقارئ من عرض مختصر لجغرافية هذه المنطقة أن التضاريس الطبيعية قد قامت بدورها فى الإبقاء على خط الحدود بين الدولتين ثابتاً إلى حد ما ، وأسهمت أيضاً مثلما تفعل اليوم فى تنظيم الوسائل الكفيلة بالدفاع عن هذه الحدود . ففى الشمال كانت بلاد القرم مفتاح نظام الدفاع الذى أقامه جستنيان إزاء ما يصدر عن السهوب من تهديد ، فأمعن فى تحصينها وشحنها بالحاميات . ومن هذا الموضع تفرعت خطوط التجارة ومارست بيزنطة نفوذها على جنوب الروسيا . وكان القوط بقبائلهم الأربعة (Tetraxite Goths) النازلون إلى شمال القرم مباشرة حول بحر آزوف ، قد اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد ، وربطهم الخوف من الهون ربطاً وثيقاً بالإمبراطورية . وإلى الغرب ، بين نهرى الدون والدانوب ، ينزل الهون الكوتروجوريّون ، الذى تنصر ملكهم جرود (Grod) ، بينما كان جستنيان نفسه يقف إلى جوار حوض المعمودية عرّابا له . على أن نزولهم على البحر الأسود كان مصدر خطر ، ومن ثم لقى الهون الأوتريجوريون الذين أقاموا شرق الدون ،

ويعدون أقل خطراً لأنهم أكثر بعداً ، — التشجيع من بيزنطة على مهاجمة ذوى قرباهم . وعند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأسود ، تقع بلاد كولخيس التى رحل إليها چاسون (Jason) يوما ما طلبا للفروة الذهبية . وقد فسرت هذه الأسطورة على أنها رواية شعرية عما يجلب إلى البحر الأسود عند تلك النقطة من الهند والصين من تجارة غالية الثمن . وسواء أكان طريق القوافل مستخدماً عبر آسيا الصغرى فى ذلك التاريخ المبكر أم لم يكن معروفا ، فإنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن لازيقا ـ وهو اسم ذلك الإقليم وقتذاك ـ كانت ذات أهمية قصوى لحراسة رأس الجسر عند أقصى نقط الاتصال شمالا بين أوربا والشرق الأقصى . وكانت تحسدها فارس التى لم يكن لها فى تجارة الحرير الضخمة إلا دور الوسيط بل إنهـا أدركت أن دورها تعرض لتهديد طريق آخر يمر فى شمال ممتلكاتها . ولأسباب مشاكلة لهذه عزم چستنيان على المحافظة على ما كان له من نفوذ حاسم على « لازيقا التابعة لنا » ، كما أسماها سبقاً منه للحوادث . إذ إن قيمتها التجارية كانت عظيمة الأهمية : لأنها كانت تزود الإمبراطورية بالفراء والجلود والرقيق وتحصل منها على الملح والخمر والقمح . وكانت من الناحية العسكرية ذات موقع يناسب الدفاع أبلغ مناسبة . وكانت بما قيض لها من جبال مكسوة بالغابات وممرات ضيقة ، تزود الدولة بحاجز يحول دون غارات الهون من الشمال ويمنع فارس فعلا من الوصول إلى البحر الأسود . وحدث فى زمن الإمبراطور چستين الأول أن ملك لازيقا قدم فعلا إلى القسطنطينية يطلب التنصير وتزوج من امرأة بيزنطية وسمح بنزول حاميات بيزنطة فى قلاعه . وواصل چستنيان هذه السياسة ، مؤيداً الملوك على النبلاء المتمردين ومناهضاً نفوذ الفرس ، وعلى الرغم من النكسات المؤقتة استطاع المحافظة على سيطرته لا على لازيقا فحسب ، بل على كثير من القبائل القوقازية الأخرى أيضاً مثل الأباجيـة (Abasgi) والهون

السابيرية الذين كانت بيدهم « أبواب قزوين » ، التى كان أى مغير شمالى يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة . على أنه لم يصل إلى مثل ذلك الحد من التوفيق فى إيبيريا (وهى جورجيا الحديثة) ؛ إذ إن موقعها الجغرافى جعلها تعتمد على فارس . وفى الجنوب منها كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تسيران جنباً إلى جنب على امتداد حدود الفرات . وكانت مشكلة الفرات مصدراً لمتاعب روما مدة خمسة قرون ونصف . فهل كان الفرات حقاً خير خط للحدود ؟ الواقع أن مجراه كان بالغ الاختلاف عن مجرى نهرى الراين والدانوب ، اللذين كانا بصورة إجمالية غير مدققة — يحصران ممتلكات روما فى أوربا . أما الفرات فكان لا يجرى حول أرمينية ولا يحميها ، بل الأمر على العكس ، فإن الهضبة الأرمينية تحصر المنابع العليا لكل من الدجلة والفرات ، وبذلك جعلت وجود خط للحدود من أصعب الأمور . ومن ناحية أخرى ، كانت أراضى التخوم على الراين والدانوب مناطق زراعية ، وكانت مفتوحة للنفوذ الرومانى ، كما كان الوصول إليها من العاصمة ميسورا . على حين أن الفرات كان يفصله عن سوريا صحراء مترامية ؛ ومن ثم كان نقل الجيوش إليها أشق وأصعب ، وكانت الميزة كلها فى جانب الدولة الشرقية (فارس) ، التى كانت رحلتها إلى الحدود أقصر وطريقها إليها فى أرض خصبة ، وتوافر لديها من الطرق المؤدية ما يفسح لها مجال الاختيار . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الفرات ، كان بدلا من الدوران حول الحدود الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، ينساب مباشرة نحو الجنوب فى جوف الممتلكات الفارسية . ومن الجلى أن الهيمنة على النهر من المصب إلى المنبع كانت أمراً مستحيلا ، وأن روما لم تحاول أن تفعل ذلك مطلقاً . على أن الحد الجنوبى قد ثبت فعلا عند ملتقى الجابور (قرقيسيا) ، وهو الموضع الذى يدخل عنده الفرات أرض الصحراء . وبذلت عدة محاولات

للعثور على حلول أخرى للمسألة ، مثل اتخاذ خط دجلة مثلا ؛ ولكن لم يكن ثمة بديل صحيح سوى غزو فارس ذاتها . على أنه لم ينجح فى هذا الأمر من قادة الغرب سوى الإسكندر الأكبر . ويبدو أن أوغسطس راودته تلك الفكرة يوما ما ، كما أن تراچان وچوليان وأباطرة آخرين قد اتبعوا سياسة جادة وجريئة فى تلك الأصقاع . على أن الحد الشرقى ظل ثابتاً على وجه الجملة منذ نهاية القرن الرابع حتى الفتح العربى . وأدركت روما أن النصف الجنوبى من صحراء إقليم الجزيرة ، ليس فى وسع دولة غربية الاحتفاظ به . أما الشطر الشمالى ، فلا محيص من المحافظة عليه ، نظراً لأن هذه المنطقة ، كان يقطعها خط عمودى يمتد من آمد على نهر دجلة إلى قرقيسيا على نهر الفرات . وكانت أرمينية مفتاح الموقف ، كما أن جغرافية البلاد أظهرت فى النهاية أنها العامل الفاصل فى هذه المشكلة . وهنا أيضاً حاولت كل من الإمبراطوريتين عرض حلول منوعة ، تتراوح بين ضم أرمينيا بأكملها إليهما وبين السيادة المقنعة بأن يتولى أمرها قواد وموظفون أو أمراء تلقوا تعليمهم فى العاصمة . ثم اتفق الطرفان آخر الأمر على تقسيمها[1] . ولم تحصل روما من ذلك التقسيم إلا على ربع أرمينية ، غير أنه كان أهم شطر يخدم أغراضها ، لأنه كان يشكل منطقة خلفية تعد ظهيراً قيما لإقليم بونطش القبادوقى . وتؤلف فى الوقت ذاته قاعدة للتحكم فى لازيقا . على أن التقسيم لم يضع حداً لمؤامرات أى من الجانبين ؛ فإن أرمينية بكنيستها الزاهرة وأسواقها العظيمة التى كانت تجتذب التجار من أوربا وآسيا وبشعبها المقاتل ونبلائها الطموحين ، كانت مسرحا هيأ الفرص الوفيرة للتصادم بين مختلف المصالح وبين دهاء الدبلوماسية .

---

(١) انظر ص ٤٣ . وفى القرن التاسع أصبحت أرمينية مرة أخرى عظمة يتنازع عليها العرب وبيزنطة .

روما وفارس

ومن الجلى أن دواعى الاحتكاك لم تكن تعوز الحدود الشرقية ، كما أن الاضطرابات الداخلية كانت على الدوام مشجعة للإمبراطورية المعادية على تجديد القتال . وقد فقدت فارس هيبتها منذ منتصف القرن الخامس . إذ تنازع على وراثة العرش أمراء كثيرون متنافسون ، على حين أن البيت المالك نفسه كان يتهدده خطر الأرستقراطية ورجال الكهنوت ، هذا إلى أن الاضطرابات الدينية والاشتراكية التى أثارها أتباع مزدك قوضت الاستقرار فى البلاد . كما أن غارات السلب التى قام بها الهون على الحدود الشمالية الشرقية أثارت متاعب خطيرة . ومن ثم اتبع چستين سياسة الهجوم . فأوقف ما كان يؤديه للفرس من أموال لصيانة قلاع القوقاز وإعالتها ؛ وأخذت الدولة تعبث باللازيقيين والإيبيريين ، وقامت بهجوم صريح على نصيبين معقل الحدود الحصين العظيم . ولم يعد مفر من نشوب القتال . وشهد عام (٥٢٧) اندلاع نار الحرب الفارسية الأولى . وعاثت الجيوش الفارسية فى سوريا نهباً وتخريباً ، ولكن أضرار ذلك لم تكن بالغة ، وعندما توفى قباذ ملك فارس فى (٥٣١) وقد بلغ الخامسة والسبعين ، بادر كسرى أنوشروان الشاب الحريص على الظفر بالعرش ، بعقد صلح أبدى مع بيزنطة . ومع ذلك فإن الموقف كان قد تغير تغيراً كاملا ، إذ إن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقى الناجح . وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال . وما اتصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة فى معالجة الأمور ، مد حدود إمبراطوريته فى أثناء مدة حكمه الطويل (٥٣١ — ٥٧٩) إلى نهر جيحون (أموداريا Oxus) بوسط آسيا وإلى اليمن جنوبى بلاد العرب . ثم اغتنم الفرصة التى سنحت فى (٥٤٠) . وذلك أن چستنيان جرد الحدود الشرقية للدولة

من الجند ليؤلف القوة اللازمة لفتوحه فى الغرب ، على حين سئمت لازيقا وأرمينية سيادة بيزنطة عليهما واستمرت الحرب الفارسية الثانية من (٥٤٠—٥٤٥) . وأغارت جيوش فارس على سورية ونهبت أنطاكية فى سنوات متعاقبة ، ثم احتلت لازيقا . وأحست كوماچينى (Commagene) وأرمينية وأرض الجزيرة بشدة وطأة الهجوم الفارسى . وأسفرت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع چستنيان تعويضاً ضخماً ، غير أن القتال ظل مستمراً متناثراً فى بعض أرجاء لازيقا وبين أتباعه من العرب فى الشام . ولكن المسألة لم تحسم ، وفى (٥٥٥) عقدت هدنة أخرى ، أعقبها فى (٥٦١) سلام دام خمسين عاما ، تعهد بمقتضاه الفرس بالجلاء عن لازيقا مقابل إعانات مالية طائلة . وعلى الجملة احتفظ الطرفان بما كان موجودا من قبل من الأوضاع القائمة (Status quo antea) .

ومن العجيب أن الأساليب التى تتبعها الدول الإمبريالية بتلك المنطقة لم تتغير إلا قليلا ، فإن خطط روما وفارس الحربية ذات مشابهة عجيبة لخطط تركيا وروسيا وبريطانيا فى العصور الحديثة . ومن الأمثلة الواضحة ، ما اتخذته بيزنطة من أساليب فى معالجة شيوخ العرب بسوريا . فالحارث بن جبلة شيخ الغسانية ، أصبح بمساعدة بيزنطة حاكما على دولة عربية رومانية (ليكون مساويا فى القوة والسلطان لملك الحيرة الذى كان من أتباع فارس) . وقد رفع البيزنطيون قدر الحارث المعروف عندهم باسم أريثاس — فجعلوه من البطارقة الأشراف ومنحوه إعانة سنوية ضخمة ، وصارت عاصمته بصرى مقراً لمطرانية تدخل فى دائرة اختصاصها أجزاء من بلاد العرب وفلسطين . واستخدمت فارس تلك الوسائل عينها . ولو أنك اطلعت على تواريخ أميانوس أو بروكوپيوس لتحققت أن أوجه التشابه امتدت أيضاً إلى أساليب القتال الفعلى . وإنا لنجد نفس الخطط والحيـــل الحربية وفن الحصار

والاستحكامات ، بل الأسلحة متساهمة عند الطرفين . وتتجلى صنوف التشابه أيضاً فى نتائج الحملات العظيمة . فإن فتوح الأباطرة أمثال تراجان (Trajan) أوجوليان لم تستمر طويلا ، فإذا استولى الفرس على لازيقا التى تنكرها عليهم حتمية الأوضاع الجغرافية ، لا تنقضى بضع سنوات حتى يضطروا إلى إخلائها . ويغير كسرى على سورية ، ويعمل فيها الفساد حتى يبلغ شاطىء البحر المتوسط ، ويحمل معه جزءاً من الصليب المقدس . ثم يضطر إلى رده سريعاً ، وإلى طرد المغيرين من أرض بلاده . لقد تجمد الموقف بين الطرفين ؛ إذ كانت وسائل الدفاع أقوى من الهجوم ، ولم يختل التوازن بين الإمبراطوريتين إلا بعد ظهور الإسلام على مسرح الأحداث .

على أن نهاية حكم جستنيان الطويل كانت عبارة عن فترة شديدة العبوس. إذ إن ثيودورا توفيت فى (٥٤٨) ، فلما حرم الإمبراطور المسن إلهامها ، تخلى عنه ما اشتهر به من الحزم ، فأهمل شئون الإمبراطورية واستبدلها بالمناظرات والمجادلات اللاهوتية . وتغنى كوريبوس الشاعر الأفريقى الرشيد فقال عند الاحتفال بتولى الحاكم الجديد العرش « كل أفكاره كانت تدور حول السماء » فالمرسوم الأخير الذى أصدره فى (٥٦٥) يدور حول شئون الكنيسة ، كما أنه حافل بالاقتباسات من الكتب المقدسة ومن أقوال آباء الكنيسة الأول، وهو أكبر شاهد على دراسته العميقة المستفيضة . ولم تقع منذ (٥٥٥) حروب منتظمة ، ونظراً للأزمات المالية ، ازداد تناقص عدد الجيش ، وتضاءلت كفايته . وأضحى الحد الفارسى مكشوفاً بالفعل ، ولم يعد يدافع عن بيزنطة ذاتها إلا رجال الحرس الذين ليسوا إلا حلية وزينة . وفى (٥٥٨) أخليت معاقل الدانوب من الجند ، وأخذ سور أناستاثيوس الطويل يتداعى ويتحول إلى أنقاض . وأثارت مخاتلات جستنيان سخط الهون الكوتروجوريين فانثالوا إلى تراقيا ، وتقدموا إلى أسوار العاصمة . وساد الذعر فى أرجاء المدينة ،

ولم ينقذ الموقف إلا التصرفات السريعة التى بادر بالقيام بها بليساريوس الجندى المحنك . و بعد ذلك بأربع سنوات قام الآفار بهجوم مماثل لهذا فرد بمشقة كبيرة . وذلك أن النفقات الطائلة التى أنفقها جستنيان فى إنشاء المبانى وفيما شن من حروب وفى نفقة بلاطه قد استنزفت كل مافى الخزانة . فانحطت قيمة العملة وزادت الضرائب فى عددها ووطأتها . وزاد فى شقاء السكان أن رماهم الدهر بعدة زلازل خطيرة متعاقبة ، اندلع على آثارها وباء الطاعون فيهم وأخذت الخدمات العامة فى بيزنطة نفسها تنهار . ومرت بالناس فى إحدى السنين أزمة فى المواد الغذائية ؛ وفى أخرى تناقصت مياهها . وعاد الخضر والزرق سيرتهم الأولى من الفساد وبث الاضطراب فى الشوارع ، ودار على الألسن حديث مؤامرة لقتل الإمبراطور ، على حين أن شخصين متنافسين اسم كل منهما جستين أخذا يتآمران علناً على ولاية العرش .

أما جستنيان الذى بلغ وقتذاك الثانية والثمانين من عمره ، فجلس فى قصره ينتظر منيته الدانية ، وهو لا يعبأ بكل ما يدور حوله من أشياء . ففى أعماق الليل ، وبما حبب إلى الشيخوخة من ميل إلى التكرار ، وفى براعة قوية ، طفق جستنيان ومعه بعض القساوسة المسنين يتدارسون ما يشغل الناس من مشاكل مثل دفن العظام ولغز تحلل جسد المسيح وفساده .

الفصل السابع

عواقب حكم جستنيان

لم يتكشف عمل جستنيان ويتبدى انهياره السريع مثلما تبدى فى شمال إيطاليا . فإن اللومبارد انثالوا فجأة بعد وفاته ببضع سنوات فى السهول الممتدة بين جبال الألب ونهر پو، ولم يلبثوا أن امتلكوا المنطقة كلها فى زمن وجيز . والمعروف أنهم اجتازوا أوربا على مراحل من موطنهم الأصلى فى إقليم نهر الإلب . وعند نهاية القرن الخامس أضحوا السلطة الحاكمة فى هنغاريا ، ولم يلبثوا أن أصبحوا جيران روما على الدانوب بعد أن سحقوا الهيرول . وأفضى اعتناقهم للمسيحية على مذهب أريوس واتخاذهم وضعاً أكثر استقرارا ، إلى زيادة قوة الملكية ، كما هو الشأن عادة مع الشعوب الألمانية عندما كانت تتعرض على هذا النحو للمؤثرات الرومانية . على أن الثقافة التى حصلوا عليها فى هذا الموضع كانت طفيفة جداً ؛ إذ تجلى للرومان بعد قرن كامل أنهم لم يبرحوا « برابرة » . فإن ملكهم وإن كان مطلق السلطان لم يكن أكثر من قائد حرب ينتخب للقيام بحملة واحدة . ولم يكن لديهم قضاة (Magistrates) ولا دستور ؛ وكانت عداوات الثأر ومنازعات الدم لا زالت تتحكم فيهم ، كما كانت الرابطة الحقة فى المجتمع هى رابطة العشيرة . ومنذ رحيلهم عن منطقة نهر الإلب ، لم يستقروا بأرض واحدة ما يزيد على جيل واحد ، ومن ثم كانت زراعتهم بدائية بل إنهم حتى فى هنغاريا نفسها تركوا العمل فى الحقل للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضى جيرانهم .

الغزو اللومباردى

وكان اللومبارد والچيپيد حتى ذلك الحين هم القوى الأساسية على حدود الدانوب ، على أن چستنيان تمكن من الاحتفاظ بمدينة سرميوم التى تعتبر مفتاح المنطقة ، وذلك باتباعه سياسة روما التقليدية فى تأليب الشعوب بعضها على بعض . ولكن دخول الآڤار الحومة وهم قبيلة شرسة ذات أصول أسيوية هدم هذا الموقف من أساسه . فاتخذوا من اللومبارد مخلب قط ودمروا مملكة الچيپيد ، واستولوا على معظم البلاد ومافيها من غنائم . وعندئذ بات اللومبارد فى محنة مؤسفة . إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآڤار ، ولم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة فى الأرض . واستبد بهم اليأس فأقدموا على مايعتبر المرحلة الأخيرة فى هجرتهم . ففى (٥٦٨) انطلقت جموع اللومبارد إلى إيطاليا بزعامة ألبوين (Alboin) ، وتزايد بمن انضم إليهم من مغامرين من أجناس مختلفة . وتصادف أن استدعى نارسيس حاكم إيطاليا إلى بيزنطة فى تلك اللحظة ، ولذا لم يبد المدافعون عن الحدود أية مقاومة فعالة فيما يظهر . فسقطت كيفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحها اللومبارديون ؛ وغادر بطريرك أكويليا مدينته المحتوم مصيرها وفر إلى مستنقعات جرادو . واحتفظت القوات الإمبراطورية بمدينتى پادوا ومانتوا حيث صمدوا عند خط نهر پو ، وحاولوا دون انتيال اللومبارد إلى الساحل الشرقى ؛ ولكن ضاعت منهم ڤيشنزا (Vicenza) وڤيرونا ، فانعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن راڤنا . وبعد ذلك بسنة دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل فى النهاية إلى الاستيلاء على پاڤيا بعد حصار طويل فأصبحت عاصمة اللومبارد . فانفصل بذلك شمال إيطاليا عن الإمبراطورية ، ولكن ما خبأته الأيام بعد ذلك كان أسوأ وأنكى . ففى السنوات التالية تعرضت راڤنا وروما لتهديد مستمر ،

ونجح اللومبارد فى القضاء على هجمات بيزنطة وردها على أعقابها ، على حين أن جماعتين مستقلتين من اللومبارد زحفتا جنوبا وأسستا دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو .

وتوفى ألبوين وظل العرش من بعده شاغراً مدة تجاوزت عشر السنوات . غير أن الفتح واصله زعماء من أتباعه ، تولوا قيادة الحاميات المرابطة بالمدن الرئيسية . وعلى مر الأيام أخذ هؤلاء « الأدواق » وهم حوالى خمسة وثلاثين دوقا ، يستقرون رويداً رويداً بالجهات التى سبق أن احتلوها فتحولت « الدوقيات » إلى أملاك مستقلة استقلالا كبيراً عن القوة المركزية . ولايخفى أن ضعف الملكية الذى تسبب فى هذا الاستقلال ، هو العامل الفاصل فى التاريخ اللومباردى . فلو أتيح للقوم عاهل قوى لجاز أن يلزم بالطاعة دوقاته الخارجين على إرادته ، بل لقد كان فى وسعه فى حالات نادرة ، أن يسيطر على دوقيات الجنوب القوية . غير أن المرحلة الأولى لما أصابه الدوقات من الحرية ، كان لها أثرها . إذ إن لومبارديا كانت مملكة سادها دائماً الانقسام والانشقاق . ولذلك فإن أعداءها سواء كانوا من الأباطرة أو البابوات أو من المغيرين من الفرنجة ، كانوا يستطيعون دائماً الاعتماد على نبيل لومباردى ثائر . ولذا فإن فتح إيطاليا لم يكتمل على أيديهم بسبب افتقادهم التماسك . ولم يكن فى وسع بيزنطة أن تدبر من الجند من تعزز بهم حامياتها ؛ وكانت البابوية لا تزال ضعيفة حتى ذلك الحين . وكان ضعف الملكية اللومباردية هو السبب الوحيد فى إنقاذ القواعد الإمبراطورية من الطرد من سواحل إيطاليا وفى الحيلولة دون انحدار البابا إلى منزلة أسقف لومباردى .

والمعروف أن غزاة إيطاليا السابقين — كانوا كما رأينا — يعدون السكان الرومان شركاءهم فى الإمبراطورية . على حين أن اللومبارد كانوا على العكس من ذلك يعدونهم رعايا ويعاملونهم المعاملة التى كان يلقاها فى هنغاريا الصقالبة الذين كانوا

يفلحون الأرض لسادتهم المقاتلين . وجرد أصحاب الأراضي الرومان من أملاكهم، وأصبحت أرضهم وماشيتهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للفاتحين . ولكن الذى كان يريده اللومبارد لم يكن الأرض فى حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش فى تكاسل ودعة ؛ أو أداة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب . وبناء على هذا أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام للأرض ؛ ولذا يمكن القول بأن كل ما تغير هو المالك وحده . وأصبح الفلاحون الصغار (Coloni) يقابلون الطبقة شبه الحرة عند اللومبارد ، وهى المعروفة عندهم بالألديونى (Aldiones) وشاركهم فى هذا المصير فيما يبدو الفقراء من أصحاب الأراضى . واستولى الغزاة على ممتلكات الكنيسة دون رادع ، وذلك لأن الغزاة الأريوسيين لم يميلوا إلى احترام حقوق الكاثوليك . وبهذه العملية أصبح كل لومبارددى حر مقاتلا ومالك أرض ، وعلى الرغم من أن مساحة الإقطاعات لم تكن متساوية ، فإن الأدواق احتفظوا بجانب كبير من الأراضى على أنها ضياع خاصة . وترتب على اجتماع عاملى الاستيطان المستمر والتأثر بالنظم الرومانية أن تلاشت العشيرة رويداً رويدا ، وحلت محلها الروابط المحلية التى تترتب على امتلاك الأرض . فأصبحت الدوقية هى الوحدة ، وطابق اتساع هذه الدوقيات إجمالا ، رقعة المناطق التى كان يحكمها فيما مضى الحاكم (Magistrate) والأسقف ، وقد ظلت المدينة الرئيسية هى مقر الإدارة . ومع ذلك فإن دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو احتلتا رقعة بالغة الضخامة والاتساع ، كما أنهما كانتا فى الواقع إمارتين مستقلتين ، وذلك بعد أن عزلهما عن اللومبارديين فى الشمال نطاق من الممتلكات الإمبراطورية .

ولم ينته القرن السادس حتى صارت مملكة اللومبارد وطيدة الأركان بإيطاليا . فعادت الملكية على يد أوثارى ، وبفضل هذا الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارد بالمحافظة على أملاكهم ، بل بسطوا رقعة ممتلكاتهم

على حساب بيزنطة . وكان أخوف ما يخشونه من خطر فى تلك المدة هو عدوان الفرنجة ، الذين دأبوا على الإغارة على شمال إيطاليا فى غارات تعززها هجمات الجيوش الإمبراطورية من راڤنا . وتمكن أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) من القضاء على هذا التحالف الفرنجى البيزنطى ، الذى كانت تزلزله فى الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، مذ كان كل منهما يتهم الآخر حقا وصدقا بالعمل لمصلحته فقط . وبفضل هذا العمل الذى حققه أوثارى، تهيأ للومبارديا لمدة قرن ونصف من الزمان من الحرية ما مكنها من تركيز دفاعها على جبهة واحدة .

إيطاليا البيزنطية

على أن الدفاع لم يكن كل شىء . إذ كان مركز الملك يتوقف على عدد أتباعه ، الذى كان يمكنه من منازعة أقوى أدواقه . ونظراً لأن الملك كان يعوزه نظام مالى منظم ، أصبح لزاماً عليه أن يكافىء هؤلاء الأتباع بما يبذله لهم من الأرض ، واقتضى ذلك بدوره المزيد من الفتوح . وكانت كل زيادة فى عدد السكان اللومبارد تدعو إلى العمل فى نفس هذا الاتجاه ، وذلك نظراً لأن كل مقاتل حر كان — مثلما حدث فى إسبرطة — يعتمد من الناحية الاقتصادية على رقعة الأرض التى يملكها والتى يفلحها له الأرقاء . وكانت النتيجة أن شنت سلسلة مستمرة من الغارات على الممتلكات المجاورة ، وتحت هذا الضغط تحول التنظيم الداخلى لإيطاليا البيزنطية إلى نظام عسكرى للدفاع ، فى أثناء القرنين التاليين . وقد حرص چستنيان على أن يرجع لإيطاليا وإفريقية الأحوال الإدارية السارية فى القرن الرابع ، التى بمقتضاها كانت السلطات العسكرية مفصولة فصلا دقيقاً عن السلطة المدنية . على أنه مع ذلك قد آثر فى بعض أقاليم الشرق الجمع بين السلطتين فى يد موظف واحد، وهو تقليد ما لبث حتى تطور فأصبح ما عرف فى العصور التالية باسم نظام « الألوية Theme » .

وكان اتباعه هذه السياسة أمراً لامفر منه ، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الغرب . إذ إن تهديد البرابرة أخذ يشتد سنة بعد أخرى ، ولم تقابل ذلك التهديد زيادة فى الجهود والموارد تكفى لمواجهته وكسر شوكته . وترتب على ذلك أن صارت الاعتبارات العسكرية بالغة الأهمية . وأدى استمرار ظروف الحرب إلى الانحراف بجهاز الإدارة المدنية الذى اشتهرت به روما فى العصر القديم إلى النزعات الإقطاعية التى ظهرت بالقرون الوسطى . فالجندى صار أشد أفراد المجتمع أهمية ، والذى حدث فى إيطاليا ، هو أن طبقة عسكرية تبرز فى النهاية بوصف كونها إحدى الطبقات الرئيسية فى السكان الأحرار . وهذا المبدأ نفسه ينعكس أيضاً فى الحكومتين المركزية والمحلية سواء . فإن النائب الإمبراطورى الملقب بالإكسارخ ، وهو موظف يجمع بين السلطات العسكرية والمدنية كان يعين أول الأمر فى حالات الطوارئ الخاصة ، فلم يلبث أن صار حاكم إيطاليا الفعلى ، فحجب بذلك الوالى المدنى (Prefect) ، الذى اقتصرت دائرة اختصاصه على مايتطلبه الإشراف المالى من أعباء . وتلاشى ببطء كل من المجلس البلدى وموظفيه إزاء تزايد سلطة القائد العسكرى التربيون (Tribunus) الذى أضاف إلى سلطته الأصلية أعباء قضائية وتنفيذية .

أصبحت إيطاليا وقتئذ منطقة من ثغور الحدود ، وأصبحت كل مدينة مسورة قلعة يمتنع بها أصحابها فى وجه أعدائهم . وكان الإكسارخ يوجه النظام الدفاعى من مركز قيادته العليا براڤنا ، وهو نظام مركزى بالغ الإحكام ، تمكنت بفضله بيزنطة وقد ضغط عليها بشدة كل الآڤار والبلغار من ناحية ، والعاصفة المتجمعة — عاصفة الغزو العربى من ناحية أخرى ، — من الاحتفاظ بقبضتها على إيطاليا مدة قرنين تقريبا . وهو عمل عظيم جدير بالتنويه ،

نظرا للصعوبات الخاصة التى تجتمع فى هاته الولاية . ولم تعد مصالحها هى مصالح العاصمة . إذ لم يكن ممـا يعنى النبيل الرومانى ولا الفلاح الإيطالى فى قليل ولا كثير ، أن تحتاج بيزنطة إلى الجند والأموال للحدود الشرقية . فـكل ما كان يعنيهما مباشرة هو الخطر اللومباردى؛ مع تذكر أن القوات الإمبراطورية كانت غير كافية لمعالجة هذا الأمر ، وأن الدولة كانت ترسل الجند والمعونة المالية بين حين وآخر تنفيذاً لهذا الهدف . ومن ثم أصبح من الضرورى تحميل إيطاليا عبء الاعتماد على مواردها الخاصة ، وتنفيذا لتلك الغاية تحول السكان المدنيون إلى جند من المليشيا المرابطين ، الذين كان يقوى من أزرهم فى البداية فصائل الجند النظاميين البيزنطية، ولـكنهم أصبحوا فيما بعد يؤخذون بأجمعهم من مصادر وطنية بحتة . وكان يلى الإكسارخ — الأدواق (Duces) الذين يهيمنون على الأقسام الجديدة التى كان يتجمع تحتها بقايا إيطاليا الإمبراطورية ، ثم « القواد » العسكريون (Tribuni) الذين تحت إمرتهم حاميات المدن . وكانوا يحتفظون بالجيوش عند النقاط الاستراتيجية مثل : راڤنا وروما ونابولى وكالابريا ، على حين أن أساطيل راڤنا وصقلية كانت تضمن المواصلات بحرا . فأما على البر ، فإن الشريان الرئيسى للدفاع الذى أصبح عسيراً بسبب الظروف الجغرافية ، هو الطريق الذى يربط راڤنا بروما ، وأقيم لحراسة هذا الطريق بعناية تامة خط من القلاع ، وقوة خاصة أنزلت فى پيروچيا لتتحكم فى التقاطعات الموجودة بين ممرات جبال الإپينين .

وسارت المركزية إلى أبعد من ذلك. فبذلت جهود جبارة لـكى تتمثل إيطاليا من كل النواحى فى ولايات الإمبراطورية الأخرى . ونيطت الإدارة بموظفين من اليونان ، واستخدمت مناهج العمل والأساليب اليومية اليونانية . وأنعم بالألقاب البيزنطية على أعضاء الأرستقراطية الإيطالية ، فإذا أثبتت الأيام ولاءهم وكلت إليهم وظائف تنفيذية . وشرعت جموع غفيرة من التجار الشرقيين

والصناع والحجاج والقسوس والرهبان تتجه إلى إيطاليا . وأخذت الآداب والثياب البيزنطية تنتشر بين الطبقات العليا . فإن جريجورى أسقف تور (Tours) يصف نبلاء الرومان الذين رآهم يرتدون ثيابا من حرير مرصعة بالجواهر ، هذا إلى أن فسيفساء راڤنا يحدثنا بنفس القصة. ومما يشهد بمحاكاة مافى القسطنطينية وجود الخصيان بالبندقية وتحديد أقسام خاصة بالنساء فى المنازل بها، كما أن أردية الأرجوان التى يرتديها أدواج البندقية فى الحفلات الرسمية تذكرنا بأصلها البيزنطى . وكان القديسون والشهداء الشرقيون يلقون فى كنائس إيطاليا اهتماماً خاصاً فى ذلك الأوان . ومن أمثلة ذلك شيوع الأشياء التى كانت تنذر للقديس ميخائيل والقديس ثيودوروس والقديسين كوزمارس ودامیان ، على حين أن الشعائر والفنون البيزنطية كانت تستخدم بوفرة فى العمائر والصلوات الكنسية . ومن الأساقفة والبابوات المعروفين أيضاً من يحملون أسماء يونانية ، وشاع من جديد استعمال اللغة اليونانية فى روما . وكان الدوق (Dux) الرومانى يقصره المطل على البالاتين والممثل للإكسارخ ولمولاه الإمبراطور عن طريق ذلك الإكسارخ ، يسيطر على المدينة بجنده البيزنطية . وكان بكل مدينة كبيرة حى يونانى ، كان على استعداد تام لمؤازرة أية إجراءات تتخذها السلطة المركزية لإلزام السكان الإيطاليين بالطاعة . وأعجب شىء فى ذلك الزمان إعادة فتح جنوب إيطاليا أمام لغة بلاد اليونان وآدابها ونظمها مثلما فتحتها الهللينستية القديمة قبل ذلك بخمسة عشر قرنا — وتواصلت هذه العملية حتى القرن الحادى عشر وظلت حية حتى فى عهد ملوك النورمان ولا تزال بعض آثارها موجودة إلى يومنا هذا .

الحركة الانفصالية الإيطالية

وعلى الرغم من هذا التنظيم الاستقصائى الدقيق كانت قوة بيزنطة فى إيطاليا تعتمد على أسس غير ثابتة . وقد ظهر أن اللومبارد كانوا هم السبب المباشر فى تقوض سلطانها ، ولكن النظم نفسها كانت تحتوى بذور فنائها . فالواقع أن اكتمال عملية المركزية أسهم فى ظهور قوى محلية برزت حينما تجلى ضعف السلطة المركزية . ذلك أن اليونانيين لم يتلقوا مطلقاً — حتى يوم جاءوا لإنقاذ إيطاليا من القوط الشرقيين — التأييد القلبي من السكان ، كما أن جشع الموظفين البيزنطيين وابتزازهم أموال الناس لم يزدهم إلا مقتاً فى أعين الشعب . وقد زادت الخصومات السياسية من تأجج الخصومة بين الغرب والشرق التى زاد فى أوارها اشتداد التعارض بين مصالح الطرفين . وجعل حكام بيزنطة رائدهم الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية مهما كان الثمن ، لذلك دأبوا فى أثناء تلك القرون على بذل جهود متواصلة فى سبيل فرض ما استطاعوا فرضه من توفيقات وتساهلات فى الشئون الدينية ، وهى سياسة أثارت ألد العداء فى إيطاليا الكاثوليكية ، التى لم تكن تأبه كثيراً بمشاكل السياسة والتدبير التى تواجه الإمبراطورية . وأخيراً كانت نفس نزعات التفكك ، التى ظلت إبان القرون الثلاثة الأخيرة مصاحبة لتمزق الإمبراطورية الرومانية إن لم تكن السبب الفعلى لذلك ، قد أخذت تشتد وتتفاقم بحكم احتياجات الزمان ، التى جعلت الاعتبارات العسكرية فى الأهمية الأولى . لقد انهارت الحياة فى المدينة القديمة وانهارت معها الطبقات الوسطى تحت ويلات الغزو والدمار الاقتصادى التى أنتجتها تلك العوامل . وقديماً قصر الجهاز الضخم الذى اصطنعه دقلديانوس وقسطنطين الطبقات الدنيا على طوائف وطبقات حرفية تعمل فى خدمة الدولة. أما الطبقة العليا فإنها سيطرت على هذا الجهاز لمصلحتها ، كما أن إفلاس الدولة

زادهم قوة . وتولى كبار أرباب الأملاك جميع الاختصاصات المحلية وجباية الضرائب . وأصبحوا مسئولين عن صغار الفلاحين الذين يخدمون فى ضياعهم. وعندما أصبحت إيطاليا معسكراً مسلحاً ، وأضحى كل مواطن جنديا ، صار من الطبيعى أن ينتقل التنظيم العسكرى إلى قبضة هؤلاء النبلاء . فصار مالك الأرض قائداً لأتباعه ، مثلما كان التربيون قائدا لكتائب المدن . وعندما غلب العنصر الإيطالى على طبقة الجند ، نظرا للافتقار إلى الأمداد البيزنطية ، صار لزاماً أن تنمو الروح الوطنية المحلية ، وبلغت العملية نهايتها بذوبان الفروق رويدا بين الموظفين البيزنطيين وبين الأرستقراطية الإيطالية ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين حاولوا أن يزيدوا من قوتهم باقتناء الضياع فى إيطاليا ، واستطاعت الأرستقراطية الحصول على المكانة الرسمية والامتيازات الاجتماعية بوساطة الألقاب البيزنطية والمناصب التنفيذية ، وهكذا نشأ مع اضمحلال السلطة المركزية نظام إقطاعى ، أحل محل الجهاز الإمبراطورى عـــددا من الحكومات المحلية .

ممتلكات البابا

أما الوظائف الباقية للسلطة المركزية فقد ملأتها الكنيسة ، التى كان نمو قوتها الزمنية آخر العوامل الكبيرة فى تكوين إيطاليا العصور الوسطى قبل عهد شرلمان . فإن قانون ثيودوسيوس ومن بعده القرار التنظيمى (Pragmatie Sanction) لم يخول لسلم الوظائف الكنسية امتيازات خاصة فحسب ، بل منحها أيضاً قدرا كبيرا من السلطان السياسى ، ولا سيما فى مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (التربيون) والأسقف أخذا عند ذاك يتقاسمان معظم ما كان لموظفى المدن من حقوق وواجبات ، وزاد فى سلطان الكنيسة مالها من مكانة باعتبارها أكبر مالك للأراضى بإيطاليا . كان الأسقف

هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبذا يناط به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها . واختصت الكنيسة منذ زمن طويل بالنظر فى شئون البر والإحسان والمستشفيات ، بل إنها استطاعت بفضل ما كان لها من نظام فائق ، ومكانة أدبية ، أن تجعل لنفسها فى أمور القضاء والضرائب ، مكانة مرموقة فى نظام الحكم الإمبراطورى.

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط متانة مركز إيرادات كرسى روما ، بل وزودها أيضاً بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا . إذ كان للكنيسة منذ عهد قسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد دائم بسبب وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشراف روما . ونم سبب آخر ، يتمثل فى تزايد الميل العام عند صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية مالك قوى ، وبذلك كان الملاك الأحرار يصبحون فى كثير من الأحيان مجرد مستأجرين للأرض مدى الحياة مقابل ما يجتنونه من ميزات الأرض والطمأنينة .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير التى كتبت عند نهاية القرن السادس بمعلومات قيمة عما اشتهرت به روما من الكفاية والدقة فى إدارة أوقافها ؛ وهى تظهرنا كذلك على الدور الذى لعبه جريجورى نفسه فى تنمية الموارد المادية للكنيسة . وقد بذل جريجورى فيما وجهه من تعليمات إلى قسس الأبروشيات ، وهم موظفون كنسيون كانوا يجمعون فى عملهم بين واجبات حكام الأقاليم والقضاة والموكلين بالصدقات فى مناطقهم الخاصة ، بذل اهتماماً كبيراً بأدق تفاصيل تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض. ومنها نتبين أن السروج يحصل عليها من كامبانيا وعروق الخشب من بروتيوم لتستخدمها كنيسة روما . أما صقلية التى تقع بها أغنى

الأوقاف وأوسعها مساحة ، فكان يرد منها مقادير ضخمة من القمح تفى بتموين روما نفسها — وفى ذلك دلالة على ما حدث من إحلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الإمبراطورية فى عاصمة الإمبراطورية السابقة (روما) — وكانت الإيرادات الضخمة التى يحصل عليها بهذه الطريقة تستخدم فى وجوه شتى :— مثل افتداء الأسرى وتخفيف ضائقات المجاعة وصيانة المستشفيات والإنفاق عليها وإعانة مختلف الكنائس التى تعرضت لغارات وتخريب اللومبارد . وأخيراً يبدو أن البابوية لم تكن تضن بالألطاف والرشى السنية على معيار ملكى سخى إلى مختلف الموظفين البيزنطيين الذين يعتبر تعاونهم مع روما أمراً ضروريا ، وذلك فضلا عن الأموال المستخدمة فيما يتخذ بطريق غير مباشر من ديبلوماسية . وإن هذه الرسائل تلقى ضوءا كبيرا على علاقات جريجورى بالهيئات الإدارية الإمبراطورية ، وهى مملوءة بالاتهامات المكتوبة بعبارة صريحة ، حول ما يرتكب فى حق الناس من سلب وظلم . ومن الواضح أن جريجورى كان يتحدث بوصفه شخصاً مسئولا ، وهو شديد الأمل فى أن تحذيراته لن تذهب سدى . وإن جريجورى ـ وقد سبقه فى منصبه وخلفه عليه أحبار خاملون ـ ليملأ إلى حد ما المنزلة التى قدر للبابوية أن تحتلها إبان القرون التالية . كان رئيساً لمنظمة مركزية قوية (البابوية) والحَكَم المطلق فى كل الأمور المتصلة بالعدالة ، وقد تسلح بمفاتيح الحل والإبرام التى اختص بها بطرس الرسول — فى السماء والأرض ، وبما كان لروما من مجد غابر ، لذا كانت له شخصية فوق شخصية البشر ، لم يكن الإمبراطور إزاءها فى نظر سكان إيطاليا المعذبين ، سوى سيد بعيد الدار ، ولم يكن الا كسارخ إلا مجرد قائد ضعيف أو حاكم ظالم .

على أنه ينبغى لنا أن نؤكد أن أهم ما استندت إليه هذه السلطة ، ما كان لجريجورى من هيبة شخصية وسلطان أدبى ، لا إلى ما كان تحت تصرفه من

قوة مادية . وقد اضطرته الظروف أن يعتمد بلا كلل على أفانين الديبلوماسية وأن يعمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والاتحادات ؛ لكى يجابه المعارضة الكثيرة التى كانت تلقاها مدعيات الكرسى البابوى . إذ حدث حتى فى داخل حدود إيطاليا وإستريا ، أن كبار رؤساء الأساقفة فى الشمال بميلان وأكويليا وراڤنا — رفضوا قبول سيطرة روما ، ومع أن الانشقاق قد التأم أخيراً، فإنهم حافظوا على نزعتهم الاستقلالية بما تلقوه من التشجيع سراً من قبل بيزنطة ، التى رحبت بكل ما يُعوق ازدياد نفوذ البابوية .

على أن أهداف جريجورى تجاوزت حدود إيطاليا ، فقد اتخذ الموظفين الذين يعينهم للإشراف على ضياع الكنيسة بإيطاليا وغيرها من الأماكن ، من رجال الديبلوماسية ورجال المخابرات ، استطاع بفضلهم أن يتصل بجميع القوى الحاكمة فى الغرب علمانية كانت أو اكليروسية . ولم يتردد فى أن يطلب من حكومة السلطة الإمبراطورية أن تسانده فى إلزام أساقفة إلليرية بالطاعة ، وفى قمع حركة الدوناتيين والوثنيين فى إفريقية ، على الرغم من أنه لم يحرز فى ذلك نجاحاً تاماً . وفى أسبانيا حيث اعتنق القوط الغربيون المذهب الكاثوليكى حديثاً ، بادر جريجورى إلى توثيق علاقاته مع البيت المالك فضلا عن هيئة الكنيسة الجديدة . وبذل فى فرنسا محاولة جريئة ولكنها غير مثمرة ، كما يمارس عن طريق القاصد الرسولى البابوى بمدينة آرلس ما كان يدعيه منذ زمن طويل أساقفة روما من سلطة على الكنيسة القومية هناك . والمراسلات المتبادلة بين جريجورى وبين مجموعة منوعة من ملوك الفرنجة ، لاسيما برانهيلدا السيء السمعة، تحض هؤلاء على القضاء على السمعانية[1] وغيرها

(١) السمعانية Simony : هى الاتجار فى المقدسات والمصافقة فى الرتب والوظائف الدينية . [المترجم]

من الأعمال القبيحة بالكنيسة ، وتدل على معرفته الوثيقة بالأحوال السائدة فى سائر الأبروشيات ، فضلا عن إلمامه بالأحداث السياسية . على أن دعاوى البابا لقيت الاحترام ، وإن لم تظفر بالرضى والقبول . وذلك لأن الميروفنجيين لم يميلوا إلى التنازل عن المزايا التى حققوها من السيطرة على الكنيسة ؛ ولكن النفوذ الشخصى لجريجورى كان معترفا به فى كل أرجاء فرنسا ، وثمة امتداد آخر لنشاطه يتجلى فى بعثة أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترة ، تلك البعثة التى قدر أن تكون لها عواقب بالغة الأهمية .

وفى تلك الأثناء أصر الكرسى البابوى بروما أن تبقى له الصدارة ، رغم ما تعرض له من اعتداءات الكنيسة الشرقية ، بعد أن استمرت على طول الزمن خصومة مريرة مع أسقف القسطنطينية،الذى كان يدعى—بوصفه مطرانا لعاصمة الإمبراطورية — بأن له الحق أن يتخذ لقب البطريرك المسكونى (Oecumenical) . ومما زاد فى توتر العلاقات مع بيزيطة تنافر نظريات كل من البابوية والإمبراطورية . فعند جريجورى ، أن البابا فوق الوالى (الإكسارخ) ، وأن الكنيسة فوق الدولة ؛ على أن خلفاء چستنيان من الناحية الأخرى ، كانوا يرون أن الولاية الإيطالية ، شأنها شأن جميع أجزاء الإمبراطورية الأخرى ، لابد أن تخضع للإمبراطور ومرسوميه ، وذلك لأن « الدولة لا تقع فى داخل الكنيسة ، بل إن الكنيسة هى التى فى داخل الدولة » . ولما كان جريجورى مقتنعاً أن الطريق الوحيد إلى الجنة لمن دعوا إلى صراطها المستقيم ونزلها الكريم ، إنما هو الكهنوت أو الرهبنة ، فإنه رأى أن مرسوم الإمبراطور موريقيوس الذى يحظر على موظفيه المدنيين أو جنده السيامة قسيسين أو التبتل رهباناً ، جريمة لابد من سؤاله عليها ساعة هول الحساب فى يوم القيامة . ولا مراء أن أسقف بيزنطة الذى يقيم بمنطقة أقرب إلى الحدود الشرقية وهو بالتبعية أشد إدراكا للخطر البالغ المحدق بالإمبراطورية وحاجتها الماسة إلى

كل جندى وشاب يصلح للجندية لو أريد للحضارة النجاة من التدمير ، — كان أحسن تفهماً للوضع من جريجورى. والواقع أن العلاقات بين القسطنطينية وروما قطعت فعلا فى فترة من الفترات ؛ كما أن الفرح الشديد الذى قابل به جريجورى اغتيال موريقيوس يظهر عمق اعتقاده بأن مصلحة الكنيسة قد عرضتها سياسة الإمبراطور الراحل لأشد المخاطر . ومع ذلك لم يخطر بباله احتمال الانفصال عن بيزنطة ، والواقع أن الموقف بإيطاليا كان يحول دون ذلك . فإن العدو كان على الأبواب ، ومع أن جريجورى لم يقدر الصعوبات التى كانت تواجه الوالى (الإكسارخ) ، فإنه كان يدرك تماماً قيمة حمايته له ، وضرورة التعاون لمناهضة اللومبارد — وإن كانت الإيماءات التى صدرت حتى فى هذا المقام نفسه إرهاصاً بمجرى السياسة البابوية مستقبلا .

جريجورى الكبير

الواقع أن ما اتصف به جريجورى من سمات خلقية هيأه لمعالجة هذا الوضع الغريب المحيط به . كان بحكم مولده نبيلا رومانياً وشغل منصب والى المدينة قبل دخوله أحد الأديرة البندكتية . وعين فيما بعد قاصداً رسولياً للبابا بالقسطنطينية ، فحظى بفرص مراقبة السياسة الدبلوماسية الإمبراطورية ، وكانت المدينة لا تزال بعد مركزا للسياسة الأوربية . وليس فى نواحى نشاط جريجورى ما هو أنصع من تلك الواقعة المستشفة التى يفسر بها مجرى الأحداث بكل من الإمبراطورية البيزنطية والممالك المتبربرة ، بل إنه يحولها فى الوقت المناسب لخدمة الكنيسة . فلما ولى البابوية فى زمن كانت فيه إيطاليا بأكملها فى حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، ألفى نفسه على رأس النظام الثابت الوحيد فى عالم مزعزع متغير . وكان كل ما يحيط به يعزز التعاليم التى تلقاها فى أثناء تدريبه القانونى والإدارى ؛ ولم يكن بوسع الكنيسة أن تتم على أكمل وجه

رسالتها عن الخلاص الروحى إلا باستخدام الوسائل المادية . ولهذا ازداد الاهتمام بالمبادئ العملية المتعلقة بالندم (التوبة) والمطهر وبما لبذل الصدقات للكنيسة من قدرة على التكفير عن الخطايا . ومن المفارقات أن أشخاصاً من التوافه مثل برانهيلدا بفرنسا وفوقاس فى بيزنطة ممن تلوث أردانهم جرائم عديدة قبيحة الشنعة — يتلقون التحيات بوصفهم نصراء للكنيسة ، وما ذلك إلا لأن السلطة المدنية مستقرة فى أيديهم ، ولا يتأتى تنفيذ العدل إلا عن طريقهم . وتتجلى واقعية جريجورى أيضاً فى إهماله للإسلوب الأدبى ، وللتربية الكلاسيكية بل الهجاء السليم . وإنه ليظهر الكراهية لأية دراسات متعمقة قد تعوق مصلحة الكنيسة أو توجد روحاً تنطوى على النقد لها ، وهى التى تقوم قوتها الحقة فى طاعة الناس لها الطاعة المطلقة . وقد اعترف جريجورى علناً بجهله باللغة اليونانية . ومن العجيب أن درايته بتاريخ الكنيسة ضئيلة ، وأشهر ما أنتجه فى تاريخها ، شرحه لسفر أيوب ، بما حوى من تأويلات شاذة ، وبما حفل من تخيلات رمزية ملتوية. ومن أكبر الأدلة على ماحدث من تدلى معايير الثقافة منذ أيام بوثيوس وكاسيودوراس ، أن شهرة جريجورى فى العصور الوسطى إنما تعتمد أساساً إلى جانب مؤلفه عن قاعدة راعى الكنيسة (Pastoral Rule) على إلمامه بالاعتقاديات[1] .

على أننا لا نزال على عتبات العصور الوسطى. ولم يكن جريجورى إلا آخر شخصية كبيرة فى فترة الانتقال بالغرب . ولم يتوافر الدليل على أنه كان يدرك ما سوف تسلكه البابوية من الطرق الجديدة . إذ كان حسبه أن يعالج كل أزمة متى طرأت رغبة فى المحافظة على العقيدة الكاثوليكية من التعرض للخطر

---

(١) هذا الكتاب المعروف باسم (Liber Regulare Pastoral) هو الذى ألفه جريجورى حوالى سنة ٥٩١ ، وهو يتناول التعاليم اللازمة للأسقف فى حياته الكنسية ، نظرا لما للأسقف من مكانة باعتباره مرشدا وداعيا للناس . (المترجم)

أو الوقوع فى الخطأ ، وحرصاً منه على وقاية سكان إيطاليا المعذبين ، وأن يحافظ فوق كل شىء على سلامة سلطات أسقف روما (البابا) وامتيازاته . فهو أشبه بشخصية جانوس[1] ذى الوجهين ؛ ينبىء أحدهما (فى أعين المتأخرين على الأقل) بما حدث فيما بعد من تسلط البابا على الغرب وبما كان للكنيسة من من سلطة زمنية ، وبما اتسم به الفكر فى العصور الوسطى من مزيج عجيب من الصفة القانونية ومن مذهب التصوف . أما المظهر الآخر ، فيدل على ماحدث من تحول أكبر نبلاء الرومان إلى أساقفة ، قادوا فى غالة وإفريقية وإيطاليا وبين أنقاض الإمبراطورية وخرائبها الأتباع ، فاستماتوا فى قتال مع السيل الجارف من غزو البرابرة ولم يرجع ما أحرزوه من انتصار إلى ما تحت تصرفهم من القوة المادية ، بقدر ما ترتب على ما أظهره أعداؤهم راغمين من الاحترام والتبجيل نحو قوة الخلق ونبالتها ، ونحو سحر حضارة قديمة .

ويعلن شاهد قبره أن جريجورى : « ولى الله » وأنه سياسى رومانى وآخر عترته .

خلفـاء جستنيان

ولقد أورث جستنيان خلفاءه إمبراطورية مثقلة بالديون ، منقسمة على نفسها بالخصومات الدينية يتولى حكمها طبقة من الموظفين بلغت من الفساد وابتزاز الأموال ما لم تبلغه حكومة من قبل ، ويتكفل بحمايتها جيش ، لم يكن من وفرة العدد ما يكفى لدرء الأخطار التى تهدد أطراف الإمبراطورية . وزاد السوء تفاقماً أن جستين الثانى حاز مع هذا الإرث المخرب (Damnosa herediras) ما يضارع إن لم يفق ، ما حازه جستنيان من الأفكار الإمبريالية

---

(١) جانوس : إله رومانى يعتبر راعيا لابتداء اليوم أو الشهر أو السنة . وتمثله الفنون ذا وجهين ينظران فى اتجاهين متعاكسين . [المترجم]

التى حفزته للتوسع . فإن ما فرضه على الآفار والفرس من طلبات وقحة ، لم تساندها قوة عسكرية أو مالية ، لم تكن تنتهى إلا بالانسحاب المهين أو ما هو شر منه مما قد ينشب من حروب مدمرة . وعلى الرغم من رغبة كسرى فى السلام ، فإن چستين أججّ نار الحرب مع الإمبراطورية الفارسية (ولم يكن يعوز القوم مبرر للحرب Casus belli على تلك الحدود الطويلة) ، وسرعان ما أعقب النجاح المؤقت الذى أحرزته الجيوش الرومانية سقوط دارا (٥٧٣) ذلك السقوط المكارث ، وهى من أهم نقط الدفاع على خط حدود أرض الجزيرة . وترتب على ذلك أن اكتمل ما اشتهر به چستين من جنون العظمة فأضحى جنوناً كاملا . وخلفه فى العرش تيبريوس وهو جندى كفء ، فبدأ عهداً جديدا لسياسة أكثر تناسباً مع الموقف .

وأدرك تيبريوس مركز الإمبراطورية الحرج ، فتهيأت نفسه للتنازل عن بعض الأراضى للآفار النازلين بمنطقة الدانوب ، ولم يحرص إلا على الاحتفاظ بسرميوم لما لموقعها من أهمية جوهرية . ولكن الأمور سارت أشواطاً بعيدة جداً حتى اضطر قبل موته بزمن قصير أن يسلم القلعة العظيمة لخاقان الآفار ، على حين انهمر فيضان من مغيرة الصقالبة على شمال بلاد اليونان. فكأن الإجراء الذى اتخذه تيبريوس كان توقعاً لمجرى الأحداث فى المستقبل. إذ تحتم على بيزنطة بعد أن فصلتها عن غرب أوربا كتلة صلبة من البرابرة ، أن تركز اهتمامها منذ تلك اللحظة على ولاياتها الأسيوية ، وأن ترسم سياسة محددة تقوم على الوفاق فى الأمور الدينية وتخفيف وطأة الشدائد المالية ، حتى يطمئن رعاياها الذين استبدت بهم الحيرة والتردد . وفى الحين نفسه ، استمرت الحرب مع فارس على الرغم من كل الجهود التى بذلت لإيقاف نارها ، وراحت تجر ساقيها ببطء شديد ، جالبة على الإمبراطورية الدمار دون أن تنتهى إلى نتيجة حاسمة حتى عهد موريقيوس الذى خلف تيبريوس فى (٥٨٢) . وحانت

فرصة سعيدة لوضع حد لها فى (٥٩١) ، عندما اضطر حاكم فارسى جديد تولى الملك بثورة فى القصر ، أن يلتمس العون من الروم [١] ليثبت أقدامه فى عرشه. وكان السلم هو الشرط الذى فرضه موريقيوس ثمناً لإيقاف الحرب ، وعلى الفور بدأت الجيوش البيزنطية حركة انتقال نحو الغرب بقصد استرداد نخوم الدانوب . وبدا الحظ كأنما أخذ يتحول إلى صف الإمبراطورية ؛ لولا أن ألم به انقلاب آخر قدر له أن يهبط به على الفور إلى أوهد حضيض. ذلك أن موريقيوس وقد اشتد به الشوق إلى مواصلة ظفره على الآفار ، أبى أن يسمح لجنده بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء . فتمرد الجند عليه على الدانوب . ونادوا بفوقاس — وهو قائد مئة غير متعلم — إمبراطوراً للبلاد ، وزحف العصاة من ثم على القسطنطينية . وكانت إجراءات موريقيوس الشديدة نفرت منه قلوب الناس عامة ، ولم يجد فوقاس أدنى صعوبة فى دخول المدينة . وتلى تتويجه مذبحة عامة فى البيت المالك السابق .

وعندئذ ارتفعت قبضة موريقيوس القوية ، ولاح شبح الفوضى من جديد فى ظل حكم خلفه المجرد من كل هدف . وإذا بالنزاع يشتد بين أحزاب السرك بالمدن الكبرى ؛ وأخذ اضطهاد أصحاب مذهب وحدة الطبيعة واليهود الذى صدر به أمر صريح من فوقاس ، يعجل بتنفير الولايات الشرقية منه وانسلاخها عن الدولة ، على حين راحت الجيوش الفارسية تتقدم باطراد على خط الحدود بأكمله من أرمينية إلى فلسطين . حتى بلغت فى (٦٠٨) مدينة خلقدونية التى تواجه القسطنطينية من وراء شقة البحر الضيقة . وأخذ الطاعون يفتك بالناس فى العاصمة ، وأخذت قلة الطعام تزيد فى شقاء السكان ألوانا . وبلغ الأمر أن الخضر أنفسهم ، وهم حزب الإمبراطور ، أخذوا ينددون به فى

---

(١) الروم هو الاسم الذى يطلقه العرب والقرآن الكريم على الدولة البيزنطية . (المترجم)

السرك ، ويقاومون قواده ، وترتب على ذلك أن تقرر حرمانهم من الحقوق السياسية .

وجاء الخلاص من حيث لم يتوقع أحد . فإن هرقل كان يحكم وقتذاك فيما يبدو إفريقية ، التى لعلها كانت أكثر ممتلكات الإمبراطورية ازدهاراً ، وهو قائد اشتهر بالذكاء وبالتوفيق فى تجاربه . فراسله نبلاء القسطنطينية الساخطون على إمبراطورهم ، فقبل آخر الأمر أن ينفذ حملة تتولى تنصيب ابنه واسمه هرقل أيضاً على العرش الإمبراطورى . وفى (٦١٠) أقلعت العمارة البحرية من قرطاجنة ، وعندئذ ظهر فى الأمور جو جديد ، قوامه ما اقترنت به الحملة من روح مغامرة جديدة ، وما احتشد من السفن ذات الأبراج ، وصورة العذراء التى أقامها قائد الأسطول فى رأس سارية سفينته ، تلك الصورة « التى لم تصنعها يد إنسان » . ولم تعد المدينة المطلة على البسفور « السُّرة » الحقة لعالم البحر المتوسط . إذ ضاقت رقعتها فلم تتجاوز المناطق المحيطة بها : آسيا الصغرى وتراقيا ومقدونيا . أما أسبانيا فقد طردت الحاميات الإمبراطورية . وأخذت سلطة بيزنطة فى إيطاليا تتضاءل باستمرار ، إزاء ما حدث من نمو وتطور التنظيم اللومباردى والبابوى . ولم تعد بدالماتيا بعد (٦٠٤) أية جند رومانية . خاصة وقد دق الغزو الصقلبي إسفينا بين الشرق والغرب ، سيما وأن الفتق كان يزداد على الأيام اتساعا . وهنا أخذت دول البلقان تظهر إلى الوجود رويدا رويدا . فالآن تتلفت الإمبراطورية نحو الشرق ، وتتركز قواتها على الجبهة الفارسية .

الإمبراطور هرقل

ولم يلق هرقل مشقة كبيرة فى خلع فوقاس الطاغية المكروه ، الذى لم يلبث أن لقى مصرعه عقب سقوطه . ولكن ذلك لم يكن إلا بداية عمل هرقل.

ولم يكن بد من انقضاء اثنتى عشرة سنة قبل أن تتمكن الإمبراطورية من استرداد قواها بالدرجة الكافية التى تمكنها من القيام بعمليات عدوانية من أى حجم على أعدائها الشرقيين . إذ لم يكن بد من إعادة النظام إلى نصابه مثل إصلاح الموارد المالية للدولة ، ومثل تهدئة الصراعات الدينية بين الولايات ، قبل أن يستطيع هرقل تخليص القسطنطينية من التهديد المزدوج من قبل الآڤار والفرس ورد الولايات إلى الإمبراطورية . وفى الحين نفسه تواصل تقدم الفرس . فسقطت دمشق فى (٦١٤) ؛ ولم تلبث بيت المقدس ذاتها أن سقطت بعد ذلك بقليل ، وأن حمل الصليب المقدس — وهو أقدس آثار المسيحية — إلى بلاد فارس . وعندئذ أصبحت مصر إيالة فارسية مدة عشر سنوات ، وبذلك فقدت بيزنطة مواردها الثمينة فى المواد الغذائية . وليت الأمر اقتصر على ذلك ، إذ خبأت الأيام ما هو أسوأ ، إذ إن القوات الفارسية تقدمت للمرة الثانية مخترقة آسيا الصغرى ، وأقامت معسكرها عند خلقدونية ، وأخذت تواجه المدينة من وراء مياه البوسفور ، على حين حدث فى الحين نفسه فى ناحية البر الأوربى من المدينة ، أن الآڤار هبطوا عليها بقواتهم ونهبوا ضواحيها الشمالية . واستبد اليأس بهرقل ففكر فعلا فى نقل عاصمة الإمبراطورية إلى قرطاجنة ، لكى يبدأ بها بداية جديدة فى بيئة جديدة ، ليس للسوابق فيها أدنى وزن . على أن الفكرة الرائعة لم تتحقق ، ولكن مجرد دورانها بخلده يدل على عبقرية صاحبها ، وهى أصالة أوحت بالحل الذى وفق إليه أخيرا .

كان هرقل أحرز الكثير عند (٦٢٢) . فإن التدقيق وحسن الاختيار فى المناصب الهامة أحاط الإمبراطور برجال من أفراد أسرته أو من التابعين المأمونين . وأفضى الاقتصاد فى الشئون الإدارية وإعادة تنظيم من بيده من جند إلى إرجاع الجهاز الإمبراطورى سيرته الأولى من النظام العامل . ولكن الخلاف الدينى كان ينطوى على مشكلة أعقد وأعند . فلم يكن التسامح الدينى

كافياً فى حد ذاته، وذلك لأن التسامح فى تلك العصور كان من الضرورى فرضه بالقوة الجبرية. واستطاع الإمبراطور أن يجد صيغة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية بين الكاثوليك والمونوفيزيتيين، غير أن ما بذله هرقل من جهود، اقتضت زمناً طويلا لحمل الناس على قبولها، لم يلق إلا الفشل الذريع.

على أن جميع من بالعاصمة واجهوا الخطر المشترك برأى واحد، فاتخذت الحملة الموجهة على فارس صورة الحرب الصليبية. ذلك أن هذا الاتجاه أخذ يستقر ويزداد رسوخاً طوال قرن من الزمان، إذ صارت حروب بيزنطة تتخذ شكل الحرب المقدسة، التى تضطرم دفاعاً عن العقيدة المسيحية، التى كان وجودها مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له بوجود الإمبراطورية الرومانية. وكانت عبقرية هرقل العجيبة داعياً لشحذ الشعور الدينى لدى رعاياه؛ وعندئذ اجتمعت كلمة الكنيسة والدولة على تزكية ذلك المسعى العظيم. وسمح سرجيوس البطريرك بإقراض نقود الكنيسة كما تستخدم فى تمويل العمليات الحربية. فصهرت المواعين المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة لتقدم رصائد مالية إضافية. وأصلحت ذات البين بين الزرق والخضر لهذه البغية، وبلغ الأمر إلى حدّ أن توزيع الخبز مجاناً — وهو حق العاصمة وامتيازها منذ أيام آل جراكوس — قد أمكن إيقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة.

وكانت خطة هرقل الاستراتيجية بالغة الجرأة. إذ إن القسطنطينية كانت مهددة من جانبين. فعزم هرقل على أن يؤدى للآفار أتاوة مقابل رحيلهم عن القسطنطينية. وفوق هذا فإنه بدلا من محاولة استرداد ولايتى مصر وسورية المفقودتين منه، صمم أن يضرب فارس فى سويداء قلبها، وأن يدفع جميع الشعوب المسيحية التى تقطن بأرمينية وما وراء القوقاز، نحو الجنوب إلى وادى دجلة. وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الجرىء فى أقل من ست سنوات (٦٢٢ — ٦٢٨). وكان الهدف الرئيسى من الحملة التالية (٦٢٢ — ٦٢٣)

تخليص آسيا الصغرى . ونزل هرقل بجيوشه فى « إسوس » قرب « البوابات القيليقية » التى يدخل بواسطتها من سورية إلى آسيا الصغرى . ثم تقدم إلى «قبادوقيا وبنطش » ودفع بالجيوش الفارسية من مركزها الذى يتهدده عند خلقدونية ، وهزمها فى معركة فاصلة . وشهدت السنتان التاليتان (٦٢٣-٦٢٥) تقدماً آخر. ففيهما احتل هرقل أرمينية وشغل نفسه بتجنيد القبائل الكوخيسية والإيبيرية . وقام بغارات ناجحة على المناطق الشمالية . وانصرف إلى تجنيد قبائل كوخيس والكرج (إيبريا) . وعلى الرغم من الغارات الموفقة التى شنها على المناطق الشمالية ، فإن الجيوش الفارسية رغم ما تعرضت له من هزائم متكررة ، استطاعت أن توقف كل غزو فعلى .

وكان عام (٦٢٦) نقطة التحول فى الحرب . إذ صمم كسرى على حشد قواه جميعاً لسحق ذلك الخصم الخطر . وكانت خطته أن يجعل أحد جيوشه يستوقف هرقل ، بينما يزحف جيش آخر على خلقدونية ويهاجم العاصمة . وفى تلك الأثناء حشد خاقان الآفار جيشاً ضخماً ، استعداداً لمحاصرة بيزنطة فى نفس الحين من الشمال . وكانت بين الطرفين محالفات مفككة عقدت فى مناسبات سالفة . ولكن هذه كانت الحالة الأولى لقيام جهد حق متآزر بين الطرفين ، وكان التهديد المزدوج جارفاً وقوياً . واستمسك هرقل بخطته بشجاعة نادرة . فأرسل إلى القسطنطينية شطراً من قواته ، حيث وكل الدفاع عنها إلى النبيل البطريقى بونس والبطريرك سرجيوس . وكلف شطرا آخر بمقاومة قوة الفرس المحدقة بالعاصمة ، على حين تمسك هرقل نفسه بأرمينية ، وواصل استعداداته للهجوم على الأراضى الفارسية . واستمر حصار بيزنطة شهر يوليو بأكمله . وكان الأعداء يشنون فى كل يوم هجوماً جديداً على أسوارها ، على حين كانت السفن الصقلبية فى الميناء تهدد وسائل الدفاع البحرى . وامتلأ

السكان بالحماسة الدينية فقاوموا مقاومة المستيئس. وتآزر الأعداء وشنوا هجوماً متكاتفاً فصده السكان منزلين بهم خسائر فادحة ؛ وذلك أنهم اكتشفوا الخطة قبل تنفيذها ، فخادعوا الصقالبة حتى أوقعوا الكثيرين منهم فى أسر السفن الرومانية ، ودب الرعب فى الآفار لما حل بقواتهم من كوارث ، فانسحبوا من الحصار . وفى تلك الأثناء انهزم الجيش الفارسى الآخر ، بينما أوشك هرقل على الفراغ من إتمام استعداداته. فوجه هرقل ضربته القاصمة فى أواخر السنة التالية ، إذ هبط إلى وادى دجلة ، وشتت شمل آخر جيش لدى الفرس ، ففر نحو الجنوب مضعضع النظام ، ثم استولى على قصر كسرى ، وهو على مسافة سبعين ميلا من شمال العاصمة ، وبذلك انتهت مقاومة الفرس . وعندئذ شقت الجيوش عصا الطاعة وخلع كسرى عن عرشه، ولقى مصرعه بعد تعذيب طويل ، وعقد ابنه صلحاً مع هرقل ، وبذلك انتهت الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية إلى الأبد . وبمقتضى شروط الاتفاق استردت روما كل ما فقدت من أقاليم، وعاد إليها جميع من بيد فارس من أسرى . على أن أبرز رمز للنصر كان عودة الصليب المقدس الذى كان له دور بارز ضخم فى مواكب السرور التى حيت هرقل عند عودته إلى القسطنطينية . لقد تساير القديم والجديد جنباً إلى جنب فى هذا الحفل الختامى لعالم زائل . على أن انتصار الإمبراطور الرومانى الذى حياه شعبه باسم سكيبيون[1] ، اختتم فى كاتدرائية القديسة صوفيا ، حيث رفع البطريرك الأثر المقدس للصليب عاليا ليبارك الإمبراطور المسيحى ، رأس الكنيسة والمدافع عن المدينة المقدسة .

وكان ذلك الحفل البهيج احتفاء بما أصاب مجد روما وهيبتها من انتعاش

---

(١) سكيبيون هو بطل الحرب البونية الثانية . انظر المترجم المجلد الثانى (ط ٢) من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف هـ . ج. ولز (المترجم)

حقيق رائع . فى الشمال والغرب ازداد تداعى سيطرة الآفار بعد الصدمة التى نالتهم أمام أسوار بيزنطة ، وانقلب الصقالبة والبلغار على الآفار وسيادتهم ، وشهدت السنوات القليلة التالية قيام أول دولة صقلبية فى موراڤيا ، ولم يلبث أن تلاها إنشاء إمارة كرواتية مستقلة فى دالماتيا . وفى الشرق حيث كانت الإمبراطورية الفارسية عدو روما التقليدى قد تلقت أثقل ضربة وجهها إليها إمبراطور رومانى ، فانتزع منها كل ما ملكته حديثا ، وانغرست بأرضها فى ثنايا ذلك بذور حرب أهلية دائمة . وللمرة الثانية زعمت حضارة البحر المتوسط لنفسها انتماء سكان آسيا الصغرى وسورية ومصر إليها . وبذا تمت كتابة الفصل الأخير من التاريخ اليونانى الرومانى .

والواقع أن ذلك كان آخر نصر أحرزه العالم القديم . فالدولتان الفارسية والرومانية اللتان ظلتا تتقاتلان زمناً طويلا ، أصابهما الدمار بعد هذا الصراع الأخير الذى أودى بهما . ورقدت ولاياتهما الضعيفة النازفة والثائرة المتمردة مفتحة الفجاج للفتح الإسلامى ، الذى قدر له أن ينبجس من الصحارى العربية فى بضع سنين . ومن وراء حاجز دول البلقان التى أخذت تنضم بعضها إلى بعض بسرعة فائقة — كانت أوربا الغربية تتشكل أشكالا جديدة ، ولن يفوتنا أن نميز جيدا دلائل نمو الإقطاع بإيطاليا وفرنسا ، كما أنه لن يعوزنا أن ندرك علائم اتساع قوة البابوية مستقبلا . وقد حمل مبشرو روما رسالتها إلى أقصى الغرب ، وأخذت إنجلترة تدخل فى دين المسيح رويداً رويداً . ومن بين أنقاض الفوضى الناجمة عن الحروب والغزوات ، شرع عالم أوربا العصور الوسطى يتخذ شكله ويتجمع فى مادته .